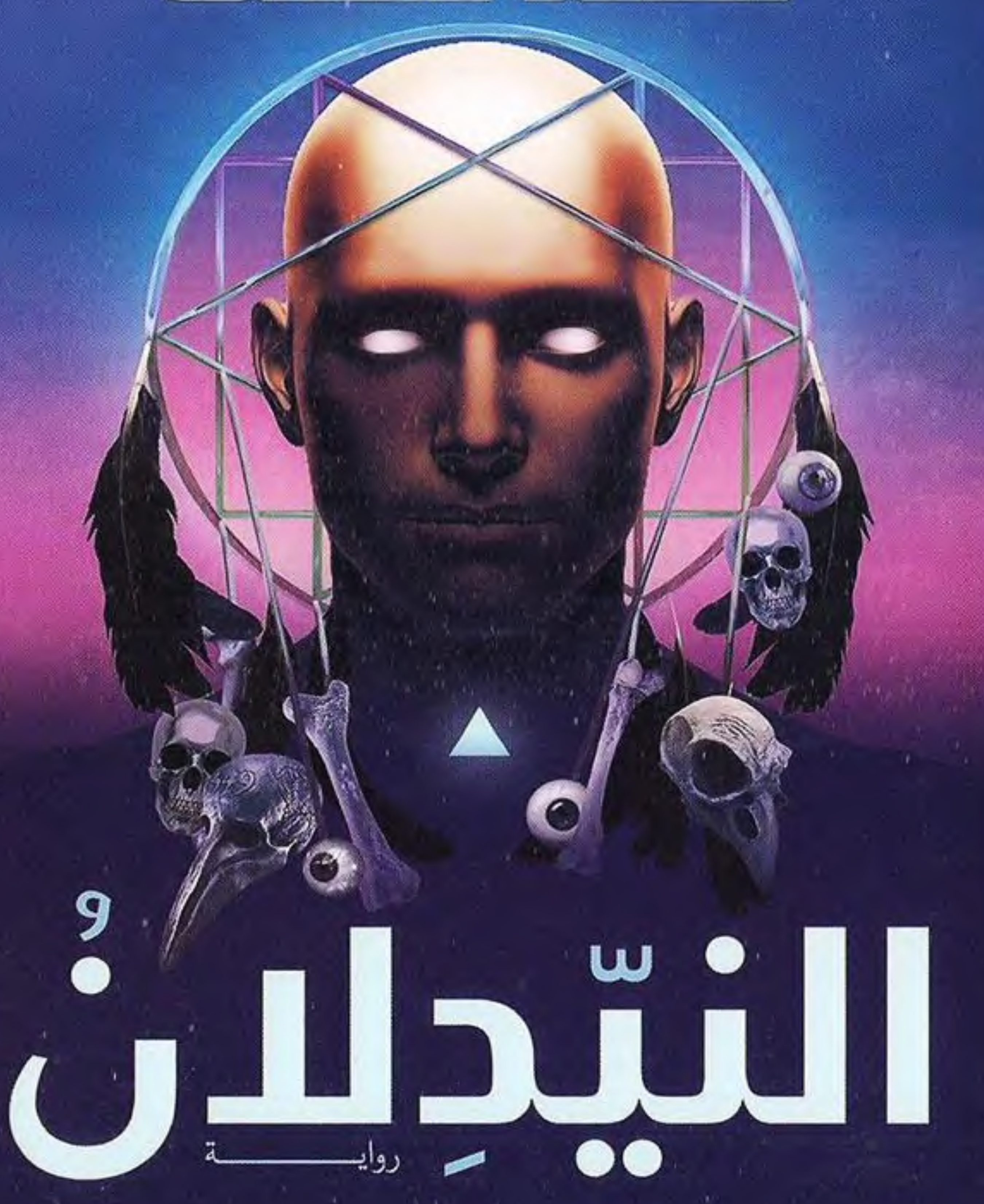
THE NIGHTMARES MAKER

محمد عصمت



النّيدِلانُ

رواية

محمد عصمت

النيدلان

رواية



إهداء

إلى زوجتى الحبيبة:

كُنت فاكِر إن الجنة في السما بس.. لحَد ما قابلتِك

إلى هادي وإياد:

نفسي اللي بعمله دا يكون مصدر فخر ليكم
يمكن ساعتها تعرفوا أنا أد إيه كُنت بحبكم ومستعد أعمل أي
حاجة عشانكم
ربنا يخليكم ليَّا

إلى الصوت العالي المُزعج

مش كفاية دوشة بقي؟

مقدمة لابُد منها

أمسكت كوب قهوتي وأنا أنتظره ليبرد قليلًا، لا أحبها إلا حين تهدأ وطأتها وتنطفئ نار سخونتها قليلًا، أتأمَل المكتبة الضخمة التي تمتَد أمام عيني وهي مُزدانة بعشرات الكُتب، تنفست بُعمق وأنا أمد يدي لأختار أحد هذه الكُتب بشكلٍ عشوائي، دائمًا ما أفعل هذا حين أبحث عن رسالة أو علامة معينة لتُعينني في أمر احترت فيه

وضعت كوب القهوة على المكتب وأنا أفتح الكتاب الضخم ذو الغلاف الجلدي الأسود السميك، فتحت صفحة عشوائية وقرأت أول ما وقعت عليه عينيّ

أَنْجُ نِجَاءً مِنْ غَرِيمٍ مَكْبُولْ ... يُلْقى عَلَيْهِ النَّيْدُلانُ والغُولْ

النيدلان.. هذه هي الإشارة التي كُنت أبحث عنها، ورغم أنها كلمة غير متداولة إلا أنني كُنت أعرفها جيدًا، النيدلان هو الكابوس في اللغة العربية الفصحى، إذا هذه هي الرسالة التي كُنت أبحث عنها، وضعت الكتاب في مكانه مرة أخرى ونسيت قهوتي وأنا أتحرَك نحو القبو وابتسامة واسعة تزيِّن شفاهي

(0)

الجو بارد بعض الشيء، أسمع صوت ضحكاتهم العالية بالخارج، أسمع صوت خطواتهم وهم يركضون في كُل مكان بعشوائية، هناك شيء خاطئ في ضحكاتهم.. كأنها تتردَّد في المكان، بصوتٍ أشبه بالصدى، مددت رأسي لأنظر من بين خصاص باب الخزانة، أراقب ركضهم في أنحاء المكان بحثًا عن مكان يخبئون به، أسمع أحدهم يعد بصوتٍ مليء بالمرح والترقُّب

عشرة.. تسعة..

تعلو ضحكاتهم وهم يصطدمون ببعضهم البعض بمرح، يبحثون عن مكان يختبئون به، يبدو أنني كُنت سعيد الحظ حين رأيت هذه الخزانة الخشبية القديمة موضوعة بإهمال في ركن مُظلم من المكان الذي نلعب فيه، بمُجرَّد أن أولانا الشخص المُختار ظهره وبدأ بالعد، تسللت بخطواتٍ بطيئةٍ إلى هنا، فتحت بابها وأنا أدعو الله في سري ألا يُصدِر صوتًا ينبههم إلى مكان وجودي، أريد أن أفوز، فأنا أكره الخسارة

ثمانية.. سبعة..

قوانين الغُميضة سهلة وبسيطة، يولينا أحدهم ظهره ويبدأ في العد بشكل تنازلي، بدءً من العشرة ووصولًا إلى الواحد، وعلى الباقين أن يبحثوا سريعًا وقبل أن ينتهي على أماكن للاختباء، يبدأ في البحث عنهم والإمساك بهم واحدًا تلو الآخر،

وعلى الأشخاص الذي يُمسِك بهم أن يساعدونه في البحث عن الآخرين، في النهاية.. حين يتحوَّل الجميع إلى أتباعٍ له، ويظل واحد فقط مُختبئ يعلنونه فائزًا باللعبة ويطلقون عليه اسم (المِلك)

حسنًا أنا أرغب في هذا اللقب اليوم، ولهذا تسللت إلى هنا واختبئت وحيدًا

ستة.. خمسة..

بدأت أماكن الاختباء الجيد في النفاذ، كلما ركض أحد المُتبقين نحو مكانٍ ما ليختبئ به، وجد آخرًا قد احتله، نظرت من بين خصاص الخزانة القديمة مرة أخرى، من الجيد أن مكانها يسمح لي برؤية المكان بأكمله، أظن أنني سأفوز اليوم، يبحثون عني في كل مكان، لكنهم لن يجدوا لي أثرًا، وحين يشعرون باليأس والإرهاق، سأقفز من الخزانة وأنا أصيح بفرح أنني المِلك

وقتها سيعرفون أنني الفائز في هذه المُسابقة وسيعجبون بس للغاية، سيتهافت الأولاد على صداقتي، وستُعجَب بي الفتيات، وسُرعان ما سأصبح أحد أكثر الأولاد شعبية في هذه القرية الصغيرة

أربعة.. ثلاثة..

أنا إبراهيم، والدي موظَّف أمين، لا يقبل بالحرام ولا يرضى بالخطأ، لكن على ما يبدو أن هذا الأمر لم يُعجِب مُديره، حين رأى بعض الأشياء الخاطئة في العمل، أحد زملائه يقوم بتغيير بعض الأرقام في الحسابات ليدخُل إليه أرقامًا كبيرة دون أن تُثبَت في سجلات الشركة، أسرع والدي فورًا ومعه جميع الأدلة إلى مديره وأخبره بالأمر، تظاهر المُدير بالاهتمام وشكره، طلب منه أن يترك لديه كُل شيء ليقوم بإيصاله إلى المسؤولين، صدقه والدي وترك له كُل شيء، كُل شيء، حين عاد للعمل في اليوم التالي فوجئ أنه موقوف عن العمل ومحوَّل للتحقيق، وبناءً عليه تم عقابه ونقله لهذه القرية الصغيرة النائية، كان أبي يعرف أن زميله يسرق

الشركة، لكنه لم يعلم أن المُدير شريكه ومُطلِع على الأمر ويتستَّر عليه، أتينا إلى هنا مُجبرين، لم تبدأ الدراسة بعد، لكن أمي رأت أن لعبي مع الأطفال في الشوارع القريبة من البيت سيكون شيئًا جيدًا لأنه سيسمَح لي بالاختلاط معهم وتكوين بعض الصداقات قبل بدء الدراسة

إثنين.. واحد..

شارف المُختار على الانتهاء من العد، وجد الأغلبية العُظمى أماكنهم واختبئوا بها، لم يتبقى سوى واحد أو إثنين يجرون بعشوائية في المكان كالكتاكيت التائهة، ارتفعت ضحكاتهما بخجلٍ وهُما يبحثان عن مكانٍ متوارٍ بعيد عن الأعين، سيفقدون الكثير من المُتعة لو تم الإمساك بهما في البداية

أبي كذلك فقد الكثير من المُتعة وأضحى كئيبًا لا يُغادر البيت، تاهت الابتسامة فلم تعُد تجد سبيلًا للوصول لشفتيه، أصبح كثير الجلوس بمُفرده في الظلام، والدتي تبكي كثيراً، لكنه لا يراها، تبتسم دائمًا في وجهه وهي تُردِّد أن لعله خير، وأن الله لن يأتي لنا بأي شيء ليس في مصلحتنا، لكنه لا يبادلها الابتسامة، ولم يفعل يومًا منذ أن تم نقله إلى هنا، لكنني ما زلت صغيراً على هذا الحُزن، لديّ أمور أخرى أهم، أريد أن أصبح الملِك، أريد أن أكون ذو شعبية كبيرة

خلاويص..

ساد الصمت، لم يجيبه أحد، تحرَّك من مكانه وبدأ ينظر للمكان، أرض جدباء شاسعة، كانت حقلًا في يومٍ من الأيام قبل أن يجرفها صاحبها في محاولةٍ بائسة لبناء بناية سكنية فوقها، لكن القانون وقف له بالمرصاد، فتركها مُجرَّفة، لم يزرعها مرة أخرى، ولم يستطع بنائها كذلك

نظرت من الخصاص مرة أخرى، أحدهم هناك يختبئ خلف تبة رملية صغيرة،

يكتم ضحكاته بينما ينصت الآخر السمع عله يسمع همسة أو ضحكة أو أي صوت يرشده لضحية يضمها لفريقه من الباحثين ويُنقص بها عدد المُختبئين

آه.. ها هو الآخر يرقد على الأرض خلف ماسورة ضخمة مُلقاة بإهمال في المكان، والثالث يختبئ خلف بيت مهجور قريب، وها هو الرابع يطل برأسه من نافذة البيت المهجور ليُراقِب ما يحدث، الظلام دامس، بالكاد رأيته، أمي تقول أن بصري قوي ودائمًا ما تتبع هذه الجُملة بأخرى - ما شاء الله -

لا أعرف أين الباقين، زاوية الرؤية لا تسمَح لي برؤية المزيد، وأخشى أن أتحرَّك فتصدر الخزانة صوت ينبههم لمكاني، عليّ أن أحافظ على ثباتي وأن أتنفس بهدوء مهما حدث، الخشب قديم وأنا لا أدري يقينًا حالته، عُدت بظهري إلى الخلف ببطء، راقبت ما يحدث، اقترب من الطفل المُختبئ خلف الماسورة وأمسَك به، تصاعدت ضحكات الولد وهو يتبعه باحثًا عن الآخرين، سُرعان ما أمسكا بفتاتين وولد آخر، لكن شيئًا ما تحرَّك في الظلام خلفهم جعلني أنظر سريعًا إليه، ظل ضخم يتحرَّك ببطء وسط الظلام، يقترب منهم دون أن يدرون بوجوده، يتحرَّك بشكل غريب، بطريقة آلية، دلف إلى البيت المهجور، مرَّت بضع لحظات وأنا أراقبهم يبحثون عن ضحية جديدة للإمساك بها، وأتساءل.. هل كُنت أتخيَّل؟ ربما!

سمعت صرخة عالية تشُق فضاء الصمت، لا.. لم أكُن أتخيَّل، الفتي الموجود داخل البيت المهجور يصرُخ، يلتفت الجميع نحو البيت ليُراقبونه بفزع، تتقافز شياطين الرعب في أعينهم، صرخة أخرى ترجف قلوبهم مرة أخرى، هذه المرة تبعها صوت غريب، صوت.. صوت يُشبِه صوت العظام وهي تتهشَّم، صوت مضغ.. طحن أسنان.. صوت لحم يتقطَّع، لو أننا في مكانٍ آخر وموقفٍ آخر لقُلت وبكُل تأكيد أنه صوت شيء يتناول طعامه

تصاعد صوت الخطوات الثقيلة البطيئة من البيت، خرج الأطفال من مخابئهم،

يقفون بجوار بعضهم البعض، متناسين أي شيء عن قواعد اللعبة اللعينة، هناك أمر جلل يحدُث داخل البيت، لكنهم على وشك أن يشاهدوا ما سترتجف له قلوبهم هلعًا، ما سيروه لن ينسوه أبدًا، هذا في حالةٍ واحدةٍ فقط.. أن يعيشوا ليتذكروه

ظهر على باب البيت، طويل القامة، نحيل للغاية، لن أبالغ حين أقول أن جلد فوق عظم، يديه طويلتين للغاية، تكاد أطراف أصابعه تلمس الأرض، أظافره نحيلة طويلة، تنتهي بأظافر قذرة مُهشمة، يرتدي أسمالًا بالية ويقف على باب البيت المهجور يُطالع الأولاد ببطء، يتجوّل بعينيه السوداوتين بين وجوههم، عينيه سوداء كالفراغ، لا أمل فيهما، يقف على قدمين قصيرتين، تنثني للخلف بشكلٍ مشوّه

تراجع أحد الأطفال للخلف، ويبدو أنها كانت الإشارة التي ينتظرها هذا الكيان ليبدأ هجومه، تحرَّك بسُرعة لا تتناسب مع خطواته البطيئة، أمسك بأقربهم، بأيد قوية شطره لنصفين، تطايرت قطرات الدماء على الباقين الذين صرخوا برُعب وهُم يحاولون الهروب، تحرَّك بينهم بسُرعة، قضم رأس الأول وألقى جُثته أرضًا وهو يدهسها بعدم اهتمام مُنشغلًا بمُطاردة آخر، أمسك به سريعًا، كان الفتي بلا حول أو قوة بين مخالبه، مد يده إلى صدره وهو يخترقه بكُل يسر وسهولة مُمسكًا بقلبه الصغير بين أصابعه، ألقى به أرضًا وهو يُمسِك بالثالث، هشَّم عظامه بحركاتٍ سريعةٍ وألقاه أرضًا، لكن الفتى لم يمُت، كان يحاول الزحف بعيدًا وهو يصرخ ويتألَّم، بضربتين قويتين طار زوج من الصبية ليصطدما بالحائط بقوة هشمتهم تمامًا، تأمل الموت من حوله وهو ينشج بعُنف، كان مُنتشي بما فعل فخور بنفسه، لاحظ الفتي الذي يحاول الزحف بعيدًا، اقترب منه وتأمله بابتسامة سُخرية تكشف عن أنيابه الحادة قبل أن يرفع قدمه عاليًا ويهشم بها رأس الفتى الذي توقَّف عن الحركة مُرغمًا بعد أن غادرت روحه وتركت جسده وحيدًا

حين انتهى من القضاء عليهم جميعًا، بدأ يتحرَّك بين الجُثث والبقايا ببطء شديد، مزهوًا بما فعل، بدأ بجمع الجُثث في كومة واحدة، يجرهم على الأرض واحدًا تلو الآخر، خيوط الدم ترسم لوحة سريالية مُرعبة على الأرض التُّرابية، راقبتهم من داخل الخزانة الخشبية وقلبي يكاد ينخلع من مكانه من شدة الخوف، كتمت أنفاسي وأنا أراقبه، وضعهم في كومة من الموت وجلس بجوارهم، قدمه تنثني بشكلٍ مُستحيل وهو يجلي القرفصاء أرضًا، بدأت أسمع مزيجًا من الأصوات المُرعبة، طحن أسنان تلتهم طعامًا شهيًا بشهية مفتوحة، تهشُّم عظام بين ضروس قاسية، أصوات مضغ وبلع، كان يلتهم طعامه باستمتاع غير طبيعي

كاد قلبي يتوقَّف خوفًا، عليّ أن أظل هنا إلى أن ينام أو يرحل، لن أستطيع الرحيل من هنا في وجوده وإلا لحقت بهم إلى العالم الآخر، وصدقوني أنا لا أرغب في أن أكون وجبة لكيانٍ شريرٍ مثل هذا، عدت بجسدي للخلف كي أعدِّل من موضعي دون أن أنتبه لمدى قدم وسوء حالة الخزانة التي أنّ خشبها مُعترضًا على ما فعلت

توقف عن تناول طعامه، ساد الصمت تمامًا، حتى قلبي يبدو أنه توقَّف عن النبض تضامنًا مع هذا الصمت، وضعت يدي على فمي كي أكتم أنفاسي، وقف وهو ينظر نحو الخزانة بشك، اقترب منها بخطواتٍ بطيئةٍ، كان يحاول أن ينظر لي من بين خصاص الخزانة، لكنه يجد صعوبة في رؤيتي، أنيابه الحادة كانت مُلطخة بالدماء، قطعة جلد ضلَّت طريقها إلى معدته وتعلقت بين أسنانه الصفراء، رائحة كريهة تقترب مع اقترابه، اتسعت عيناي بفزعٍ لا حدود له، وقف أمام الخزانة وهو يُصدِر صوتًا يُشبه قرقرة القطط، الدماء تتساقط من ذقنه لتلوث صدره وضلوعه التي تبدو من تحت جلده، في عينيه شر وحقد لم أر مثلهما من قبل، أغلقت عيني بخوف وأنا أشم رائحته قوية، سمعت صوت القرقرة مرة أخرى، أغلقت عيني وأنا أفكِّر في أي شيء آخر

أنا الآن في مكانٍ آخر، على جزيرة مهجورة، وسط الأشجار والطبيعة الخلابة، وحدي، لا.. لست وحدي، هذا الكائن المُرعِب لن يتركني وحيدًا

لحظة!

ما هذا الصمت؟ أين ذهب؟ ما زلت أشم رائحته لكنني لا أسمعه، فتحت عيني ببطء ونظرت عبر خصاص الخزانة لكنني لم أره، كُل شيء كما كان من قبل، لكنه غير موجود، أين هو؟

نظرت في كُل مكان لكنني لم أره، شعرت بحركة خافتة بداخل الخزانة، هل هو فأر تسلّل إلى الخزانة؟ مددت يدي في جيبي وأخرجت علبة الثقاب الصغيرة، بيدٍ مُرتعشة حاولت أن أشعل العود الأول، لكنني لم أوفّق في إشعاله، انتهى الأمر به ساقطًا من يدي وسط الظلام، هاربًا من إتمام مُهمته، أخرجت عودًا آخرًا وأنا أشعله، هذه المرة نجحت في اشعاله، نظرت عبر خصاص الخزانة، ما زال غير موجودًا

سمعت الحركة الخافتة مرة أخرى عن يميني، حركت يدي وأنا أرتعد بشدة لأرى مصدر الحركة

رأيته! يجلس القرفصاء بجواري داخل الخزانة، اللهب المُرتعد يزيده قبحًا وشرًا

ابتسم بسُخرية وهو ينفخ عود الثقاب

وترددت صرخاتي لتملأ فراغ الكون وترعد قلوب أعتى الشُجعان

(1)

استيقظت من نومي فزعًا، العرق البارد يملأ جسدي، أرتعد بشدة، أنشج بعُنف، بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله، كابوس مقيت، أمسح حبيبات العرق البارد التي اتخذت من جبهتي مسكنًا بظهر يدي، أبلع ريقي بصعوبة، أمد يدي نحو الكومود الصغير الموجود على يمين سريري بحثًا عن كوب الماء الذي أتركه هنا دومًا

اللعنة.. فارغ

يبدو أنني نسيت أن أملأه قبل أن أنام، أمسك بالكوب وأنا أبعد الغطاء عن جسدي المليء بالعرق، أحاول أن أقف لكن الخوذة المعدنية والأسلاك التي تربطها بجهاز التسجيل تمنعني، أسقط على الفراش برفق وأنا أدعو الله ألا تنقطع الأسلاك أو تتضرَّر، أخلع الخوذة برفق عن رأسي وأضعها على المنضدة، أتجه نحو جهاز التسجيل وأوقفه عن العمل

أمسك بالكوب مرة أخرى وأنا أتوجَّه نحو المطبخ، أشعر بأرضية البيت الباردة تحت قدمي، أتنفس بعُمق وأنا أفكِّر في الكابوس الذي كُنت أحلَم به، الكائن الشرير الذي أكل الأطفال أثناء لعبة الغُميضة، ملامحه القبيحة، صوته المُرعِب، نظرته المليئة بالشر والحقد التي رمقني بها قبل أن يطفئ عود الثقاب

أفتح الصنبور وأنتظر امتلاء الكوب وأنا أفكِّر في مشروعي، البعض يتهمني بالحمق، لكن البعض الآخر ولله الحمد يتهمني بالجنون

أشرب لأروي ظمأي وأهدئ روعي قبل أن أملأ الكوب مرة أخرى، أعود للغرفة بخطواتٍ سريعةٍ، أضعه على الكومود مرة أخرى وأتجه نحو الجهاز، أتأكَّد من أنني ضغطت زر التسجيل قبل أن أنام، حمدًا لله.. لم أنسَ هذه المرة، أتأكَّد من سلامة كُل التوصيلات والأسلاك، حسنًا.. كُل شيء على ما يُرام

أتوجه نحو حاسوبي المحمول وأبدأ إجراءات استخراج ملف الفيديو المُسجَّل من ذاكرة الجهاز، تظهر أمامي المُدة المطلوبة، بضع ساعات.. وهذا لأنني أريد أن أستخرِج الفيديو بأفضل جودة مُمكِنة، أنظر في ساعتي، مازال بإمكاني التمتُّع بأربع ساعات أخرى من النوم، واللطيف في الأمر الآن، أنني لن أضطر لارتداء الخوذة مرة أخرى، أنام بكسل على الفراش وأشعر بأمواج النوم تغرقني في ثناياها وأنا أفكِّر في مشروعي المجنون، وفي كابوسي

كابوسي الأول!

(2)

أنا فؤاد حازم العراقي، الابن الوحيد للسيد حازم محمد العراقي

عالم، باحث، ومُخترِع مثل والدي الحاصِل على جائزة الدولة التشجيعية، كان والدي أحد العُلماء والباحثين الذين يُشار لهم بالبنان، عَلَم من أعلام البحث العلمي في مصر، أفنى عُمره كُله في البحث العلمي والاختراعات، لدرجة أنه هَجَرَ والدتي وأتى إلى هنا، قصر ضخم بناه بكامل ميراثه من والده محمد العراقي تاجر المواشي الشهير، القصر في مكانٍ مهجورٍ في منطقة المُقطَّم في القاهرة، أقرب جيرانه يبتعد عنه بحوالي خمس كيلومترات، عاش حياته بأكملها مُخلصًا للعلم، دارسًا للنظريات، ومُطَّلِع على أحدث التطبيقات العملية

لم يخترع شيئًا مُهمًا طوال حياته، رغم نيله العديد من الجوائز على أبحاث علمية نظرية، لكنه تطبيقاته العملية لتلك الأبحاث والنظريات كانت عادةً ما تبوء بالفشل، وهذا جعله غاضبًا طوال الوقت، كلما فشل في التطبيق العملي، زاد انعزاله وابتعاده عن العالم، وبالطبع كان يترك والدتي بمُفردها في البيت لأيامٍ طويلةٍ، عاتبته أكثر من مرة، لكن دائمًا ما كان يسألها إذا ما كانت الثلاجة ينقصها شيئًا، أو إذا ما كانت تحتاج إلى نقود، ثم يتعجَّب حين تبكي وتتركه وحيدًا يتساءل عمّ يحدُث

كُكل الرجال الحُب بالنسبة له هو سد احتياجات أسرته المادية من نقودٍ أو طعام، ويتعجَّب حين تخبره والدتي أنها بحاجة لبعض الاحتياجات الأخرى، تريد

زوجها الذي تعشقه، تريد أن تجلس معه، أن تتناول طعامها معه، أن تُحدثه أو تسمعه، أو أن تنام في حضنه ليلًا، يجلس بالفعل ليتحدَّث معها لدقائق قبل أن يشرد ذهنه وهو يفكِّر في إحدى تجاربه أو نظرياته، يتركها ويرحل كالمجذوب، يتناقش مع نفسه ولا يسمع بكائها أو نداءاتها، أتته في يوم وهي تشعر بالغضب، صرخت فيه كثيرًا، أخبرته أنها لا تشعر بكونها متزوجة، لا تشعر بوجود رجل في حياتها، أخبرته أنها سأمت وحدتها، وتعبت من تربيتي بمُفردها، هددته أنها ستطلُب الطلاق إن استمر في هذه الحياة

كان يشعر بالغضب من فشل إحدى تجاربه، التي نَتَج عنها انفجار جهاز باهظ الثمن، لم تكُن المُشكلة في السعر أو في النقود، المُشكلة الأكبر أن الشركة المُصنعة لهذا الجهاز لا تقوم بتصنيعه إلا بالطلب فحسب، سيطلُب منهم الجهاز ويدفع جزءً من ثمنه، وسيكون عليه الانتظار بعدها لفترة تتراوَح من شهرين إلى ستة أشهر، كان غاضبًا ويشعر بالعجز، فشلت التجربة ووصلت به الأبحاث إلى طريقٍ مسدود، ودُمِّرَ الجهاز الذي يحتاجه لإعادة التجربة، لم يتحمَّل صراخها وعتابها، هددته أنها ستطلُب الطلاق، لكنه لم يُمهِلَها الفرصة لتُكمِل كلامها، ألقى عليها يمين الطلاق بمُنتهى الهدوء، قادها وهي في غمرة ذهولها إلى باب القصر، طردها بطريقة تحمِل بين طياتها الكثير من الذوق والأدب، وعاد إلى معمله ليُفكِّر في مصيبته

تقافز سؤالًا مُهمًا أمام عينيه طوال الوقت، هل سعيد المحروقي كان مُحقًا حين أخذ يُردِّد في الأوساط العلمية أن حازم العراقي فاز بجائزة الدولة التشجيعية عن طريق الخطأ، وأنه عالم بالصدفة، لكن لا.. سعيد المحروقي كان حاقد، يحقد عليه منذ صغرهما، لأن حازم كان يتفوَّق عليه في كُل شيء، حتى سُعاد زوجته كان المحروقي يتمنى لو تنظر إليه، لكنها اختارت حازم، وتزوجته، وأنجبت منه أيضًا، لهذا كان المحروقي يحقد عليه، أجل.. بالطبع

استطاع بما يُشبِه المُعجزة أن يجد جهازًا آخرًا كان أحد المعامل الشهيرة في مجال البحث العلمي يبيعه مُستعملًا لأنه سيشتري آخر أحدث منه، كانت صدفة تتكرَّر مرة كُل مائة عام، لكنه قرَّر أن يغتنِم تلك الفُرصة وألا يتركها، أرسل للمعمل يسأله عن ثمن الجهاز، وبالفعل أخبروه بالسعر الذي كان - على الرغم من ارتفاعه قليلًا - معقولًا، لكن المحروقي قرَّر أن يتدخَّل في عملية البيع، رفع السعر، حين شعر البائع بما يحدث، قرَّر أن يحوِّل الأمر لما يُشبِه المزاد مُستفيدًا من تناحر الطرفين، بالطبع المحروقي لا يحتاج الجهاز، لكنه يحتاج لتعطيل حازم، وبكُل تأكيد عَرِف، هناك قول مأثور في أوساط العلم والعُلماء أنه لو عطس عالم في دولة، سيردِّد بقية العلماء في كُل الدول المجاورة أن يرحمه الله

استطاع الحصول على الجهاز في النهاية، دفع مبلغًا لا بأس به، يكاد يقترب من ثمن الجهاز وهو جديد، لكن لا يهم، لم يكُن مُهتمًا، ما يهمه هو أنه انتصر على المحروقي.. مرة أخرى، نسي أو تناسى سُعاد زوجته أو طليقته المسكينة التي لم يمُر عليها حدث مرور الكرام، امتنعت عن الكلام، رفضت أن تتحدَّث مع أي شخص، قضت البقية الباقية من أيامها لا تغادر فراشها، تجلس فيه شاخصة، ترفض التحدُّث مع أي شخص، ترفض تناول الطعام، لا تُغادر فراشها سوى لقضاء حاجتها، ساءت حالتها الصحية، أصبحت رائحتها كريهة، تحوَّلت لشبح، مومياء لا يزال قلبها ينبُض بالحياة، وبالطبع فقدت اهتمامها بالحياة، ولم تتمسَّك بحقها في الحياة طويلًا، ماتت وتركت فؤاد بمُفرده يواجه مصاعب الحياة وحيدًا

أما حازم فلم يعلم حتى بوفاة زوجته، حضر عزائها بعد أن اتصل به أخاها ليُخبره أنه إن لم يحضر فسيأتي ليجذبه من قفاه وصولًا لسرادق العزاء، حضر العزاء لكنه لم يكُن في كامل تركيزه، كالعادة ارتدي شروده ولم يرُد على المُعزين أو ينتبه لولده الذي ابتعد عنه وهو يراقبه في حُزنٍ ولومٍ

انعزل في معمله وهو يحاول أن يسبر أغوار تجربة أخرى، لكنها كانت - والحق يُقَال - مُختلفة وعبقرية، لكنها أيضًا تحتاج لمن هو أكثر ذكاءً ولديه قدرة أكبر على التركيز، وهي صفات لا تتوفَّر فيه، رغم أننا يجب أن نعترف أنه مُجتهِد ومُثابِر، لكنها كانت ضربًا من الجنون، كان يحاول أن يبتكِّر جهازًا لنقل الوعي بين الأبعاد، كان مؤمنًا للغاية بنظرية الأبعاد والأكوان المتوازية، وهي نظرية - رغم كونها افتراضية فقط حتى الآن - لكنها مثيرة للجدل، كان مُقتنعًا بوجود أكوانٍ أخري، بالإضافة إلى كوننا، تتضافَر معًا لتُشكِّل الوجود بأكمله، كان مجنونًا بفكرة أن الأمور مُختلفة في كُل كونٍ عن الآخر، شغوفًا بفكرة أن حروبنا انتهت بشكلٍ وبنتيجةٍ أخرى في الأكوان الأخرى، مهووسًا بفكرة أن الكائنات المُنقرضة هنا تكيفت وتطورت في كون آخر، مثله الأعلى كان العالم والفيزيائي الأمريكي هيو إيفيرت الذي حاول أن يغيِّر العالم حين أتي بفكرة مجنونة، كان مُرشحًا لشهادة الدكتوراة من جامعة برنسيتون، طرح سؤالًا غريبًا وقتها، لماذا لا توجد أكوان موازية وأبعاد أخرى؟ وأجاب بنفسه على السؤال الذي طرحه، بالتأكيد توجد أكوان وأبعاد أخرى، وتُشبِه كوننا للغاية، كُل هذه الأكوان على علاقة بنا، أكوان متفرعة منا، وكوننا متفرع منها

لكن حازم لم يكُن يحلَم الحلم التقليدي الذي ضيَّع العلماء وقتًا طويلًا من حيواتهم في محاولة تحقيقه، لم ينتوي يومًا أن يحاول فتح بوابة بين كوننا وكون موازي آخر، لم تُثِر هذه الفكرة خياله ولم تجذبه، لا.. كان يحلم حلمًا آخر، أكثر جنونًا وأشد تطرفًا، كان يحلم باختراع وصُنع جهاز ينقل وعيه لكون آخر، دون أن يضطر لمُغادرة كوننا، أمر جنوني، فكرة لو أمكنه أن يطوعها لمَلَك العالم وجلس على عرش العلم، لكنه كان أخرق ومتهوِّر

لم يتأكَّد من صحة نظرياته، ولم يطمئن لسلامة توصيلاته، كان مُنساقًا خلف

الحماس، مُنصاعًا لأحلام المجد العلمي، كان يحلم بجائزة نوبل، بتكريمٍ علمي مُعتمَد من جهات خارجية، بجائزة ستَحُفر اسمه في تاريخ البحث العلمي وسجلات المُخترعين بحروف من مجد لا يضاهيه أي مجد آخر، لذلك لم ينتبه لخطأ حسابي بسيط للغاية، ربما لا يُشكِّل فارقًا على الأوراق ووسط الأبحاث النظرية، لكن حين نأتي للتطبيق العملي، فهذا الخطأ الصغير من المُمكِن أن يُحيل الأمر لكارثة، حسنًا.. هذا هو ما حدث

استيقظ أهل القاهرة وسُكَّان منطقة المُقطَّم على صوت انفجار هزّ الجبل بأكمله، بدأت الشائعات تسبح وتتوغَّل داخل عقول الناس، ردَّد البعض أنها محاولة إرهابية باءت بالفشل، وقال آخرين أنها طائرة عسكرية سقطت على الجبل، بل وانتشرت بعض المنشورات على شبكات التواصل الاجتماعي تتحدَّث عن الطيَّار البطل الذي ضحى بنفسه، أما في أوساط أخرى فكانت النقاشات على أوجها، يعتقدون أن الكائنات الفضائية قرَّرت أن تُعلِن عن وجودها، وآخرون يقولون أن بوابات الشياطين فُتِحَت، ورغم أنه كان يوم ثلاثاء إلا أن البعض بدأ يُردِّد أنها القيامة

وسط فوضى الشائعات تلك، استيقظ شخص واحد فقط وهو يشعر بغصَّة لا مثيل لها في قلبه، كُنت أنا هذا الشخص، لكنني لم أعلَم أن تلك الغصَّة معناها أنني فقدت أعز ما أملك، فقدت أبي وسندي، كُسِر ظهري، كُنت أشعر بالخوف، ارتَعَد جسدي بشدة وأنا أقف تحت المياه بملابسي، أبكي والدًا لم أعلم بوفاته بعد، لكنني كُنت أعرِف أن هناك أمرًا جللًا قد حَدَث، سمعت رنين الهاتف فخرجت من تحت الماء، أغلقته وخلعت ملابسي، جفَّفت جسدي جيدًا مُتجاهلًا رنين الهاتف، خرجت عاريًا نحو الهاتف الذي لم يتوقَّف عن الرنين، رفعت السماعة دون أن أنطِق بكلمة، أخبروني بالخبر التعيس

انفجار هشَّم معمل والدي إلى أشلاء، أكبر جُزء من المعمل كان بحجم عقلة الإصبع، لكن أبي اختفى تمامًا، دون أن يترك أثرًا، خبير الطب الشرعي يُرجِّح أن الانفجار كان قوي لدرجة أن جسد أبي احترَق تمامًا دون أن يترك أثرًا، لكنه أمر مُنافي للعقل، مُستحيل علميًا، وغير قابل للتصديق

لكن المُشكلة الأكبر، أنها النظرية الوحيدة - المنطقية - التي تُفسِّر الأمر

أعلنوا والدي ميتًا، وأخذت عزائه بنفسي، ظللت صامت طوال هذه الفترة، تسلمت المنزل، لم يتضرَّر المنزل كثيرًا، لكن القبو تحطَّم واحترق تمامًا، أغلقت باب القبو بقفلٍ كبيرٍ وذهبت للحياة بالمنزل، في محاولة بائسة للغاية من التشبُّث بما تبقى من والدي، حتى وإن كانت رائحته أو ذكراه

ولأن والدي أبى أن تكون وفاته واختفاء جُثته هو اللُغز الوحيد، فترك لي داخل مكتبه خزانة حديدية ضخمة من طرازٍ فريد، لا يعلم أحد كلمة السر التي تفتحها سواه، لكنه لم يترك لي رفاهية المحاولة أو التجربة، لأن هذه الخزانة مزوَّدة بنظام حماية فريد من نوعه سيُفجِرها تمامًا إن أخطأت في رقم واحد فحسب، مما سيتلُف كافة محتوياتها تمامًا، قرَّرت تركها دون أن أجرِّب لعل وعسى أن أجد يومًا كلمة السر التي تفتحها وحينها سيكون عليّ أن أكتشف محتوياتها

عشت في المنزل حتى وصلت لسن الثامنة عشر، واستطعت أن أحصل على ميراثي بالكامل، كانت هذه هي المرة الأولى التي أفتَح بها القفل الذي زيَّن باب القبو، هبطت على درجات السلم المُحترِق، رغم مرور أعوام طويلة، إلا أن الدُخَّان ما زال يلوِّث الحوائط، وأخشاب السلم تآكَلَت تمامًا، بخطواتٍ بطيئة هبطت إلى القبو، وقفت فوق أرضيته الخرسانية أتأمَّل المكان الذي أفنى فيه والدي عُمره، أتخيَّل المعمل الذي أحبه أكثر مني، أسترجع النظريات التي خان والدتي معها، وحينها قرَّرت، قرَّرت أن أستكمِل مسيرته، لا حُبًا في العلم، ولا عشقًا في النظريات،

بل لسببٍ أبسط من هذا بكثير، إذا مات أبي في سبيل العلم، فليُخلِّد العلم ذكراه، حتى لو عن طريقي، وعكفت لسنواتٍ أدرس ما آل إليه، وأحفظ نظرياته عن ظهر قلب، أكتشف أخطائه وأعالجها، أحاول سبر أغوار تجاربه، لكنه كان أرعنًا جسورًا، وأنا كُنت - على عكسه - متخوفًا أميل للتَمَهُّل، لذلك قرَّرت أن أمشي الطريق خطوةً بخطوة، تخصَّصت في العلوم الإلكترونية، وللمُفاجأة.. عشقت الأمر، كُنت أثمل وأنتشي حين أدرِس أو أقرأ أو حتى أحاول تعلُّم أي شيء جديد، يبدو أن الأمر - بعد كُل شيء - ينتقل بالجينات، وهذا أمر لطيف، لأنني لم أضطر للبحث كثيرًا حتى وجدت ضالتي وشغفي بالحياة، وإنما ورثتها عن أبي

أضعت جزءً كبيرًا من ميراثي عن طيب خاطر في إعادة تجهيز المعمل، زودته بأحدث الأجهزة، بعد مرور ما يُقارِب الست أشهر على بدء تجهيزه كان جاهزًا على أكمل وجه، وقفت أتأمله بابتسامة تملأ وجهي، الأرضية النظيفة المُعقمة، جهاز التعقيم باهظ الثمن، أحدث الأجهزة والأدوات، أجهزة حاسوب من أحدث طراز مزودة بتقنيات ذكاء اصطناعي لتساعدني في مُهمتي، شاشات ضخمة لعرض نتائج التجارب، وأسلاك عديدة تجري في كُل مكان كالثعابين، لو أنك هنا يا أبي لأصبحت فخورًا بما فعل ولدك

يومها نمت وأنا شاعر بالرضا، مُبتسِم كوليد غشى في حضن أمه، أشعر بالأمان، أتطلَّع للغد، سأبدأ تجاربي وسأخطو أولى خطواتي في طريق العلم، سأصبح عالمًا ومُخترعًا مثلما كُنت أنت يا أبي، وأتاني في الحلم، كان وجهه مُنيرًا، شعره مُرتَّب لامع، عينيه مليئتين بالحنان وابتسامته تملأ وجهه، كان سعيدًا وفخورًا، هكذا أخبرني، تحدثنا سويًا كثيرًا في الحلم، لم أكُن أعرف أنني أحلم، آه لو كُنت أعرف، لمَا اخترت أن أستيقظ من نومي أبدًا، لم أكُن أعرف أنني أفتقده لهذه الدرجة، لم أكُن أعرف أن حبه يملأ قلبي بهذا القدر رغم افتراقنا لوقتٍ طويلٍ، ارتميت في حضنه

طويلًا، سمعته يشرح بعض نظرياته ويلقي الضوء على بعض الأمور التي فاتتني، بالطبع سيخبرني البعض أنها أضغاث أحلام، وأن عقلي يلفت نظري للأشياء التي فوتُّها، لكنني مُتأكِّد من أن هذا أبي، وبالطبع أيضًا سيخبرونني بأنه الأمر.. حسنًا، اخرسوا قليلًا، إتركوني أستمتع بحضرة أبي، لكن دوام الحال من المُحَال، هكذا هو حال الدنيا

لهذا استيقظت، وجدت وجهي مُبللًا بالدموع، رباه.. كم أفتقدك يا أبي، لماذا لم يخترعوا حتى الآن جهازًا لتسجيل الأحلام؟ لم يخترعوا حتى الآن جهازًا لتسجيل الأحلام!

كانت هذه هي البذرة التي رواها ذكائي، لا مانع من القليل من النرجسية والاعتزاز بالنفس هنا، أنا ذكي طموح، ولهذا عكفت على دراسة الأمر، بحثت عن أسهل الطرق لتحويل الحلم إلى حقيقة، اصطفَّت الأرقام جوار بعدها البعض، تكاثرت النظريات، وزادت الأحلام، كُنت أنام في ركن صغير من أركان المعمل، ركن حولته إلى غرفة نوم صغيرة، مرتبة قديمة ووسادة صغيرة، بعض الأحلام تستحق التضحية، وهذا الحلم - إن استطعت تحقيقه - سيكون نقلة في تاريخ العلم، سيكون قفزة كبيرة للأمام في مسارات العلوم كلها، وسيكون إنجازًا لا يُستهان به للإنسانية

تخيَّل أن يكون بإمكانك أن تحتفظ بنُسَخ من أحلامك التي تُقابِل فيها الراحلين الذين تفتقد وجودهم في حياتك، أن تمتلك مقاطع من الفيديو تُسجِّل لقاءات لك مع إناس لم يعُد القدر يسمَح لك برؤيتهم، ستراهم، تتحدَّث معهم، تعيش معهم، والأفضل من كُل هذا أنك ستحظى بالفُرصة لتُشاهد هذه اللقاءات أينما أردت، ووقتما أردت، شيء عظيم.. أليس كذلك؟ دربًا من العبقرية!

لهذا حين انتهيت من اختراع النُسخة الأولى من الجهاز، كان لابد لي من تجربته،

ولأن عادةً الاختراعات الأولى لا تنجَح، فكان لابد أن أجد فأر تجارب لأجري عليه تجربتي الأولى، خرجت للشارع للمرة الأولى منذ وقتٍ طويل - ليحفظ الله عُمَّال توصيل الطلبات للمنازل - بحثًا عمن يصلح، قُدت سيارتي في هذا الوقت المُتأخِّر من الليل أبحث عن شخصٍ لا أعرفه، بلا دليلٍ أو هدى، لكنني لم أجد من يصلُح، أبحث عن شخصٍ بصفاتٍ مُعينة، شخص لا يملُك شيئًا ليخسره، شخص لا يُمانِع أن يقوم بهذه المُخاطرة

وقفت بسيارتي على جانب الطريق، أشعر باليأس والحنق يتملكان مني، هل هذا مُمكِن؟ تخيلت أن هذا هو الجُزء السهل، لم أُدرِك صعوبته إلا الآن، سمعت صوت خطوات بطيئة تقترِب من جهة اليسار، نظرت في مرآة السيارة الجانبية وراقبته وهو يقترِب، كهل عجوز منحنى الظهر، يرتدي جلباب قديم مهترئ من عدة أماكن، تُزيِّن رأسه قبعة شبكية من الخيط الأبيض لكنها مليئة بالثقوب التي سمحت لشعره الأبيض بالخروج وهو يشعر بالفضول، فتحت نافذة السيارة الجانبية وانتظرت أن يُكلمني، يبدو شحاذًا أو متسولًا، لكنه لم يعرني أي اهتمام

" أنت.. أنت أيها العجوز، أجل.. أنت يا والدي، اقترب.. اقترب لا تخاف"

اقترب وهو ينظر لي بتشكُّك، راقبني بأعين تمتلئ فضولًا وحذرًا، قبل أن يسألني بصوتٍ مُرتعِد غلبه التقدُّم في السن: " ماذا تُريد؟"

سألته وأنا ابتسِم: " هل أنت جائع؟"

ابتلع ريقه ولمعت عيناه قليلًا قبل أن يقول: " لا.. الحمد لله، تناولت عشاءي للتو"

لكنني فهمت لغة جسده، هذا العجوز يتضوَّر جوعًا، فتحت الباب وأنا أقول: " هيا يا رجل يا عجوز، لنتناول طعام العشاء في منزلي سويًا"

كاد يركب السيارة لكنه تردَّد قبل أن يسألني: " أنت منهُم، أليس كذلِك؟"

ضحكت وأنا أفهم ما يرمي له، رفعت يدي اليُسرى الذي يُزينها خاتم زواج أبي الذي لم يكُن يرتديه وأنا أخبره: " أنا متزوِّج، لا تقلق.. لست منهُم"

ركب السيارة وأغلق الباب، نظر لي والذُعر يملأ عينيه مُتسائلًا: " هل أنت قاتل مُتسلِّل؟"

ضحكت من قلبي وأنا أصحِّح له جُملته: " لا، أنا لست قاتل مُتسلسل، من أين علمت هذه الكلمة يا رجل يا عجوز؟"

تمتم بشيء عن مُذيع من مُذيعي برامج التوك شو كان يستضيف كاتب رعب شاب شهير وحدثه عن القتلة أو شيء كهذا، تذكرت هذه الحلقة، كانت حلقة لطيفة للغاية رغم أن هؤلاء المُذيعين يتعمدون تجاهلنا تمامًا نحن معشر المُخترعين ليهتموا بهؤلاء الأفاقين مُبتدعي القصص الخيالية، قُدت سيارتي سريعًا نحو المنزل، راقبت الخوف يزداد في عينيه كُلما ابتعدنا عن العُمران، لكنه التزم الصمت، صففت السيارة أمام المنزل وأنا أراقبه بطرف عيني، ظهرت عليه علامات الارتياح، هبطنا من السيارة وأنا أفتح الباب وأشير له أن يتقدمني بالدخول، تردَّد قليلًا لكن ابتسامتي اللطيفة لم تفتح مجالًا للشك في قلبه، دخلنا إلى البيت، أغلقت الباب فانتفض بقوة، ابتسمت وأنا أرتب على كتفه قائلًا: " اهدأ أيها العجوز، هيا.. سنتناول طعام العشاء سويًا"

أشرت له إلى غرفة استقبال الضيوف وأنا أتجه إلى المطبخ، اتصلت بمطعمًا قريبًا وطلبت منه طعام للعشاء بكمية كبيرة وأخبرته أنني أحتاج إليه سريعًا، ولأنني زبون مُنتظِم والعاملين هناك يعرفونني جيدًا، فلم يكُن طلبي صعبًا، انتهت ماكينة القهوة من أداء مُهمتها، صببت كوبي القهوة وكوب ثالث مليء بالماء البارد، وخرجت إلى الرجل الذي كان يجلس على طرف المقعد مُنكمشًا وكأنه يخشى أن

يتسخ المقعد، شعرت بضآلته واحراجه أمام قطع الأثاث باهظة الثمن، رحبت به وأنا أضع الصينية على منضدة القهوة قائلًا: " زادني وجودك نورًا وشرفك يا حاج"

تمتم ببعض الكلمات مُحرجًا قبل أن يقول: " لماذا أتيت بي إلى هنا؟ سامحني يا ولدي، أنت لست قاتل ولا تحتاج لسرقة الجنيهات المعدودة التي أملُك، وعلى ما يبدو أن ميولك سليمة، إذن لماذا تحتاج لرجل عجوز مثل عمك نعمان؟"

اعتدلت على المقعد وأنا أقول: " كُنت أنوي أن نتحدَّث بعد أن نتناول عشاءنا يا عم نعمان، لكن على ما يبدو أن فضولك أقوى منك، اطمئن يا والدي، الطعام على وشك الوصول، لنأكل سويًا كي يكون بيننا عيشًا وملحًا، ثم سأخبرك بكُل شيء، تفضَّل.. تناول قهوتك"

أمسك بكوب القهوة وبدأ يتناوله وهو يتأمَّل في ديكور المنزل، بعد دقائق طويلة من الصمت المليء بالإحراج والارتباك، رن جرس الباب، وقفت مُبتسمًا وأنا أقول: " ها قد وصل الطعام، ستأكُل اليوم أكلة لن تنساها"

فتحت الباب وأخذت الطعام من عامل توصيل الطلبات للمنازل قبل أن أنقده ثمن الطعام، بعد بضع دقائق كان كُل شيء جاهز

جلسنا نتناول الطعام أنا وعم نعمان، كان الرجل خفيف الظل بحق، ضحكت من قلبي كثيرًا وهو يقص عليّ قصة حياته بشكل كوميدي لا يخلو من الطرافة، بعد أن انتهينا من تناول الطعام، عدنا لغرفة المعيشة مرة أخرى، قصصت عليه الأمر بأكمله، وأخبرته أن له مُطلَق الحُرية أن يطلب الرقم الذي يُريده مقابل أن يوافق على الخضوع للتجربة، وأخبرته كذلك أن له مُطلَق الحرية في الرفض، ابتسم وهو يخبرني أنه موافق، ودون أن مُقابل، يكفيه أن يأتيني حين يجوع في أي وقت لتناول الطعام سويًا، لأنني أذكره بابنه، أخبرته أننا سأعطيه خمسة آلاف جنيه

اتفقنا على الأمر، هبطنا إلى معملي، خلع ملابسه تمامًا إلا من سرواله الداخلي،

أسجى جسده على المنضدة المعدنية، وراقبني بصمت وأنا أضع الأسلاك والمجسات على جسده، لم يتحرَّك وكأنه مُعتاد على الأمر، تأكدت من كُل شيء، راقبت الأجهزة مُطمئنًا على صحة وسلامة كُل التوصيلات، أحضرت الخوذة من فوق منضدة قريبة، وضعتها على رأسه وأنا أراقب الشاشة إلى أن ظهر عليها ما يُخبرني أن كُل شيء على ما يُرام، ابتسمت وأنا أرفع له ابهامي، ابتسم بلينٍ وهو يهز رأسه، فتحت أحد الأدراج المعدنية لأخرج محقنًا مليئًا بمنوِّم، حقنته به وأنا أربت عليه مُتمنيًا له أحلام سعيدة، راقبت وعيه وهو ينسحِب وعضلاته وهي تسترخي، علا صوت شخيره فاطمئن قلبي وأنا أخرج من القبو وأغلق الباب خلفي

***

ما هي فرصة أن ينفجر معمل في مكان نائي في المُقطَم؟ فرصة لا بأس بها، أليس كذلك؟

ما هي فرصة أن ينفجر معمل آخر في نفس المكان النائي في المُقطَم؟ شبه مُستحيلة!

حسنًا، أظن أن هذا يكفيني لأخبركم عن حظي

لم يكُن الانفجار قويًا كالانفجار السابق، لكنه هزّ أركان البيت بأكملها، لم يكُن بالضخامة التي تُخبر الجيران بوجود أمرٍ جللٍ في البيت، لكن قوته كانت كافية لتمزيق جسد العم نُعمان إلى أشلاء، أكبر جزء فيها في حجم قبضة اليد، بكيت الرجل من قلبي، كان لطيفًا حَسِن المعشر، رحمك الله يا عم نُعمان

بعد أن هدأت قليلًا أخرجت الخمس آلاف جنيه صدقة على روحه علها تكون منجيته، وهكذا فشلت التجربة الأولى للجهاز، جهاز تسجيل الأحلام..

اكتئب للغاية، مرتين.. مرة من أجل فشلي الأول، ومرة أخرى من أجل فقدي لرجلٍ طيب، جلست في غرفتي أسبوع كامل، لا أفعل شيئًا سوى تناول بضع

لقيمات أو النوم، لكنها سُنَّة الحياة، وعلينا أن نستمِر، أطلقت على نسخة الجهاز التي باءت بالفشل اسم الحاج نعمان كنوع من أنواع التكريم

استيقظت في اليوم الثامن وأنا أشعر بالحُزن ينحسِر عن قلبي ليتركني مُقبلًا على الحياة، هبطت إلى المعمل الذي كُنت قد قُمت بتنظيفه وإصلاح الأعطال التي أصابته، أعدت دراسة الأمر، راجعت كُل نظرياتي، أبحاثي، وتجاربي، إلى أن وجدت الخطأ، الخطأ الذي أودى بحياة الحاج نُعمان، عالجت الأمر وراجعت نظرياتي أكثر من مرة، لا أريد للأمر أن يتكرَّر مرة أخرى، وحين اطمئن قلبي إلى أن كُل شيء على ما يُرام، خرجت لأبحث عن شخص آخر يقوم بدور فأر التجارب

وحينها وجدت عم حسين، رجل عجوز يسكُن المقابر ويُصادق الكلاب الضالة، يكاد يموت جوعًا لكنه حريص على أن تأكل الكلاب أولًا قبل أن يأكُل هو ما يتبقى، رجل نبيل بحق، لهذا السبب تحدثت معه، كان إقناعه أكثر صعوبة من اقناع عم نعمان، لكنه اقتنع في النهاية مُقابل عشرين ألف جنيه

انتهينا من تناول طعام العشاء، هبطنا إلى القبو، تأكدت من جودة كُل التوصيلات وصحة كُل الأسلاك، حقنته بالمنوِّم وراقبته وهو يغفو، ضغط الزر

لكن ما حدث سيُطاردني كثيرًا في أحلامي طالما حييت، بمُجرَّد أن ضغطت على الزر، سمعت صوت شرارة كهربائية في جهاز ما، ولأن كُل الأجهزة مُتصلة بجسد المكسين، فللأسف الشديد تحوَّل جسده لمُستقطِب لكُل الكهرباء الموجودة في المكان، تشنَّج جسده بقوة وظهره يرتفع عن المنضدة المعدنية في ألمٍ بالغٍ، بدأت أشم رائحة الاحتراق، تمنيت لو أنني تحركت سريعًا لفصل الكهرباء.. تمنيت لو أنني أنقذته.. تمنيت لو أنني فعلت أي شيء، لكن الخوف كان يتملَّك من كُل خلايا جسدي، رعبي منعني من التحرُّك، ذعري أصابني بالشلل، راقبت جسده وهو يرتجف بفعل الكهرباء وأنا أقف مكاني كالمسحور، فاغر الفاع مُتسِع العينين،

أراقب ما يحدث وكأنني طرف ثالث غير أصيل، كأنني أشاهد أحد أفلام الرعب المعوي

لم أستطع التحرُّك سوى حين انتهى الأمر، احترق جسده تمامًا، تفحَّم بمعنى أصَح، من حُسن حظه أن الأسلاك لم تتحمَّل هذا القدر من الكهرباء وآل الأمر في النهاية لـ (قفلة) كهربائية، ومن سوء حظه أنني لم أتحرَّك سوى حين ساد الظلام

رائحة اللحم المُحترق، شكل الجُثة، صرخاته في آخر الأمر رغم أنه محقون بقدرٍ لا بأس به من المنوِّم، تركت الأمر كما هو وتوجهت عدوًا نحو دورة المياه، تقيأت في مقعد الحمَّام وأنا أشعُر بالغثيان، بكيت كثيراً، بكيت كما لم أبكِ من قبل، بكيته كما لم أبكِ العم نعمان، دفنت الجُثة في الحديقة الخلفية في جنح الليل بجوار بقايا جُثة عم نُعمان، نظفت المعمل جيدًا ووضعت بعض نباتات الزينة ذات الرائحة العَطِرة في محاولة بائسة لتلطيف الرائحة التي ستطاردني ما تبقى من عُمري

وصعدت إلى غرفتي لأكتئب، أبكي فشلي قبل أن أبكي مصير المساكين الذي ألقى بهم حظهم العَثِر في طريق مخترع فاشل مثلي، أبكي نظرياتي وأبحاثي التي آلت للفشل الذريع، أبكي دين التف حول رقبتي كحبل المشنقة، أبكي دم القتيلين الذي سيظل يلوث يدي البقية الباقية من عُمري على هذه الأرض

هذه المرة كانت الفترة التي مكثتها في غرفتي أقل، رغم أن بشاعة الأمر كانت أكبر، ربما يكون التعوُّد، وربما يكون الفضول العلمي، عكفت بعدها على دراسة الأمر للمرة الثالثة، راجعت كُل شيء إلى أن وجدت خطئًا ضئيلًا، لم أتصوَّر أن هذا الخطأ الحقير أودى بحياة شخص بريء بهذه البشاعة، عالجت الأمر، هذه المرة اتخذت قرارًا، عليّ أن أسترجل، عليّ أن أتحمَّل تبعات اختراعي ونتائج فشلي، لذلك كان القرار سهلًا للغاية، ربما يكون أسهل قرار اتخذته في حياتي بأكملها

سأخضع بنفسي للتجربة في المرة الثالثة، لذلك كان عليّ القيام التعديلات، لن

يكون هناك أحد للضغط على الزر بعد أن أنام، لذلك سأقوم بوضع برنامج يؤخِّر تنفيذ الأمر لخمسة دقائق على الأقل، أي أنني سأضغط الزر قبل أن أنام، وبعد خمسة دقائق سيستجيب الجهاز للأمر وينفذه، فكرة بسيطة ولا بأس بها، قُمت بكُل شيء على أكمَل وجه هذه المرة، لا مجال للخطأ، إما النجاح.. أو لا شيء

تأكدت من كُل شيء قبل أنا أسجي جسدي على المنضدة المعدنية، كُل شيء على ما يُرام.. أو هكذا تبدو الأمور، ارتديت الخوذة وتأكدت من كُل شيء مرة أخيرة، ضغطت الزر، وراقب الشاشة التي ظهر عليها العد التنازلي، أقل من خمس دقائق، أمسكت بالمحقن، حقنت نفسي ووضعته جانبًا، أقل من أربعة دقائق، تأكدت من الأجهزة التي تنقل مُعدلاتي الحيوية، الأمور مُستقرة، لا كهرباء، ولا انفجارات، أقل من ثلاثة دقائق، النوم يُداهمني، أشعر بأجفاني ثقيلة، أقل من دقيقتين، أحاول أن أقاومه، لكنني لا أستطيع، أقل من دقيقة، أغلقت عيني واستسلمت، تركت الظلام يفرض سيطرته على كُل شيء ويعلن من نفسي مملكته الخاصة

لا فائدة من المقاومة

ظلام تام..

***

استيقظت فزعًا، شهقت بشدة وأنا أحاول الاعتدال، جسدي يؤلمني، رأسي ثقيل، أطرافي ترفض تمامًا الاستجابة لي، هل مُت؟ هل تلك هي أعراض الموت؟ أحاول أن أقاوم شعور العجز الذي يغمُر جسدي ويُغرِق أماني النفسي، هناك شيء خاطئ، أتأمل المكان من حولي، ظلام دامس، إلا.. إلا من ضوء فسفوري يأتيني من بعيد، أحاول التركيز، أرقام.. أرى أرقام تتلألأ بضوء فسفوري وسط الظلام، رقم أربعة، ورقم ستة وثلاثون، هل هي ساعة؟ الرابعة وست وثلاثون دقيقة؟

الرابعة وست وثلاثون دقيقة صباحًا

أنا في معملي، أنا حي، أنا لم أمُت بعد، هل نجحت التجرُبة؟ أتلفت حولي وأنا أتبيَّن الأمور، جسدي يؤلمني من النوم لأكثر من ثمانٍ ساعات على منضدة معدنية صلبة وباردة، رأسي ثقيل بسبب الخوذة اللعينة التي تعلوه، وأطرافي ترفض الاستجابة لأنني مُقيَّد إلى المنضدة، أمد يدي الحُرة وأبدأ بتحرير نفسي من القيود الجلدية بنية اللون التي تتخذني أسيرًا، أزيل الأسلاك التي تلتصق بجسدي كالحشرات وأضعها جنبًا قبل أن أخلع الخوذة بعناية، أشعر بالدوار لكنني لا أمتلك رفاهية الراحة، أتحرَّك مُستندًا إلى المنضدة إلى الجهاز، حسنًا.. يوجد ملف فيديو رقمي هنا، هل نجحت؟ أبتسم وأنا أشعر بالفخر والسعادة، لكن نصفي الكئيب يُحذرني من التسرُّع، سيكون عليّ أن أشاهد ملف الفيديو أولًا قبل أن أزهو بنفسي

تحركت سريعًا إلى السلم وصعدته بخطوات سريعة، خرجت إلى غرفة المعيشة كالمجنون أبحث عن حاسوبي المحمول، وعدت به سريعًا للقبو مرة أخرى، أوصلته بالجهاز وبدأت في إجراءات نقل الملف، الملحوظة الأولى كانت أن حجم ملف الفيديو كبير للغاية، سأحتاج لمساحات أكبر من أجل التخزين في الفترة القادمة، الملحوظة الثانية أن رائحة عرقي نفاذة للغاية، عليّ أن أستحم إلى أن تنتهي عملية نقل ملف الفيديو

***

للأسف كان الملف قصيرًا نظرًا لضيق مساحة ملف التخزين المنوَّط بتسجيل الحلم، لكن التجربة نجحت بشكلٍ مبدئي، كُنت أتقافز فرحًا في أرجاء المنزل، نجحت.. نجحت.. اخترعت جهاز تسجيل الأحلام، أحتاج فقط لبعض التعديلات البسيطة ويُصبِح جهازي جاهزًا، وحينها سأعقد مؤتمرًا صحفيًا لأعلن للعالم بأكمله عن الاختراع الذي سيُغيِّر مسار البشرية، لكن أولًا يجب أن أنتهي من التعديلات

وأن أسجِّل براءة اختراعي كي أحميه، حينها سيتبقى الشق الأسهل وهو تسجيل البراءة والمؤتمر الصحفي

لكنني كُنت واهمًا يعتنق السذاجة مذهبًا، أنهيت التعديلات، وذهبت لتسجيل البراءة، أنهيت كُل شيء، اصطحبت معي كُل الأوراق المطلوبة، فعلت كُل شيء، لكنني سقطت فريسة في فخ الروتين، سقطت فريسة بين أنياب وبراثن الموظفين الذين يحتاج بعضهم إلى جلسات تأهيل نفسي للتعامل مع المواطنين بشكلٍ لائقٍ، بينما يحتاج بعضهم الآخر لجلسات كهرباء لأنهم تحولوا إلى حالاتٍ ميؤوس منها

ولكنني بعد حرب شعواء ضد الموظفين والروتين نجحت في الأمر وسجلت براءة الاختراع، لن أنسى يومها كلمة قالتها لي إحدى الموظفات وهي تختم لي ورقة من الأوراق: " من الجيد أنك اخترعت جهاز لتسجيل الأحلام، سيكون جيد أن تجد شيء ليُسجِل حلمك في أن تكون ناجح"

عدت إلى منزلي مُصابًا بالإحباط، لكن حلمي كان يدفعني للأمام، أرسلت لكُل الصُحُف والقنوات الفضائية بميعاد المؤتمَر الصحفي الذي سأكشف فيه عن اختراعي الذي سيُغيِّر العالم، وأخبرتهم كذلك أنني سأختار شخص واحد من الحاضرين ليحظى معي بلقاءٍ حصري للجهة التي يعمَل بها أيًا كانت بناءً على الاهتمام الذي ستُقدمه هذه الجهة، كما أرسلت للعديد من الشركات الشهيرة ذات العلامات التُجارية الضخمة لأخبرهم بالأمر بالتفصيل المُمِل وأخبرهم أنني بحاجة إلى راعٍ رسميٍ للاختراع، ورغم أنه لم يأتني أي رد على أي من رسائل البريد الإليكتروني التي أرسلتها إلا أنني لم أيأس، فبكُل تأكيد هذا أمر لا يستطيعون تفويته، بالتأكيد سيحضرون

لكن يوم المُؤتمَر أصبت بصدمة من صدمات حياتي، لم يحضر المؤتمر سوى

صحفيين فقط لا غير، لا تغطية إعلامية لأي قناة فضائية أو حتى أرضية على الإطلاق، على عكس العروض الخاصة للأفلام التي تمتلئ بالكاميرات والمُراسلين، لكنني ابتلعت صدمتي وواريت كرامتي بعيدًا عن الأعين وأنا أحاول التظاهر بأن الأمر على ما يُرام، وقفت خلف الميكروفون الذي أعددته بنفسي وشرعت ألقي علي الحاضرين مُحاضرة صغيرة عن أهمية الاختراع، وكيف سيساهم في تحقيق نصر جديد للإنسانية على حساب الموت، عدَّدت مزايا الجهاز بكُل حماس وشغف، بعد أن انتهيت سألتهما لو أن هناك أي أسئلة، رفع الإثنين يداهما، أشرت للأقرب، بدأ حديثه بتعريف نفسه، المأمون شريف، صحفي بجريدة الشرق الإليكترونية، سألني عن السعر المتوقع للجهاز حين يُطرح في الأسواق، ورأيت خيبة الأمل في عينيه حين أخبرته أنني لم أفكر في الأمر بعد، الصحفي الآخر كان يُدعى خالد الشريف وسألني عن كيف أتتني فكرة الجهاز، وانهمك في تسجيل الأمر في مُفكرة صغيرة كان يحملها بين يديه، شكرت كلاهما وودعتهما بخيبة أمل وصعدت إلى غرفتي لأدفن فشلي وسط شواطئ النوم العميق

هل جربت من قبل أن تحمل معك أوراق تشرح اختراعك وأن تتجوّل بين الشركات العالمية لتبحث عن راعي رسمي يُساعدك على استكمال طريقك؟ بالطبع لا، هذه تجربة لم يتسنى لأغلبكم أن يعيشها أو يمر بها، وهذا من حُسن حظكم، في بلادنا لا يهتمون بالعلم أو بالعلماء، واجهت سخرية، مزاح، استهجان، تنمُّر، واعتذارات بالجُملة

في النهاية أيقنت أمرًا هامًا، هذا الاختراع فشل رغم نجاحه، كُنت واهم وأنا أتسلَّح بأحلامي وطموحاتي البالية، ما نفع جهاز تسجيل الأحلام على أي حال؟ قنص لحظات من السعادة الزائفة في حلمٍ زائف لأحبابٍ رحلوا ولن نراهم مرة أخرى!

وما الفائدة من هذه التسجيلات؟ التذكرة الدائمة بجراحٍ لم تندمِل بعد، إحياء الألم الساكن قلوبنا بعد رحيلهم، هل ترى أبيك الذي يحتضنك في حلمك الذي تُشاهده؟ حسنًا لقد مات، وكُسِر ظهرك منذ وفاته، هل تري والدتك التي تبتسِم وهي تراك صرت رجلًا مُحترمًا؟ حسنًا لقد وافتها المنية، نضب نبع الحنان الذي رزقك به الله، والآن وقد ذكرتك بهما، عليك أن تُكمِل طريقك بجراحٍ من فقد تنزف ألمًا، هل أنت سعيد؟ لا؟ غريب للغاية! تُرى ما السبب؟

أنا سأخبرك ما السبب؟ السبب هو هذا الاختراع الفاشل الذي لا نَفع منه، أنا المُخطئ، وها أنا تعلمت من خطئي، لا مزيد من الاختراعات بعد اليوم، سأدمِّر هذا المعمَل اللعين، لماذا أضاع أبي حياته على هذا الهراء اللعين؟ لماذا لم يهتم بأسرته وحياته الشخصية أكثر من اهتمامه بهذا الأمر الذي لا طائل منه، اللعنة على العلم وعلى الاختراعات وعلى كُل شيء

اكتأبت في غرفتي كثيرًا، أضع الجهاز نصب عيني لأراقبه وأتذكَّر النكبة التي وصلت إليها بسببه، صرفت أغلب ميراثي في سباقي للركض خلف حلم لم ولن يتحقَّق، وها أنا لا أملك من حطام الدنيا سوى أقل القليل، وأصبح على أن أبحث عن مصدرًا للرزق للمرة الأولى منذ أمدٍ بعيدٍ، والأمر كُله بفضل هذا الجهاز اللعين الذي استثمرت فيه مبلغًا كبيرًا متوقعًا نجاحه وحالمًا بثروة لا بأس بها بسببه، يا لي من أبله لعين

وظللت مُكتئبًا إلى أن رأيت فيما يرى النائم أنني في قلب مُطاردة، كانت مُطاردة عنيفة مليئة بالقفز فوق أسطح البيوت، مناورات بسيارات تتحرَّك بسُرعة جنونية، رصاصات تتناثر هنا وهناك، لو كان هذا الحلم فيلمًا لحقَّق أعلى الإيرادات دون شك، استيقظت وأنا حزين رغم الأدرينالين الذي يُخالِط الدم في عروقي، لو تم تسجيل هذا الحلم لكانت إعادة مُشاهدته أمرًا مُمتعًا، ومن هنا أتتني الفكرة

إن لم يعترف العالم باختراعي العبقري/الفاشل، فسيكون عليّ أن أقنعهم بنفسي، سأنشئ أول متجر للأحلام في مصر، لا.. في الشرق الأوسط، لا.. سأنشئ أول متجر للأحلام في العالم بأسره

أنفقت البقية الباقية من ميراثي في اختراع ست أجهزة عرض أحلام، هكذا أسميتها وتلك هي وظيفتها، وضعت بها بطاقة ذاكرة تكفي لتحميل حلمًا واحدًا، سيرتديها النائم ويُثبِّت بعض التوصيلات البدائية التي حرِصت أن تكون سهلة للغاية، ثم ينام، يتم عرض الحلم المُسجَّل على بطاقة الذاكرة

لماذا ستة؟ ليس لأنني أتفاءل بهذا الرقم أو ما شابه، لكن السيولة النقدية المتوفِّرة معي لم تكفي لأكثر من هذا، خصوصًا وأن تلك الأجهزة باهظة الثمن، والآن عليّ أن أجد مكانًا مُناسبًا للمتجر، هكذا أخبرت نفسي دون أن أعرف أن سوق العقارات مُصاب بالجنون وأن السماسرة وأصحاب العقارات مُصابين بالسُعَار، لم يكفي المبلغ الذي أملكه سوى لشراء محل صغير في زقاق جانبي مُظلِم في حي هادئ شبه مهجور

اكتفيت به كخطوة أولى، مُقتنعًا أن الرزق مقسوم، وسيأتيك رزقك حتى لو في بطن حوت مثل سيدنا يونس عليه السلام، نظمت افتتاحًا صغيرًا، تعجَّب الناس من الأمر، رفضوه رفضًا قاطعًا في البداية، ثم قادهم فضولهم نحو المتجر ليسألون فقط ثم يضربون كفًا على كف وهم يتعجبون بشأن المجنون الذي يُسجِل أحلامه ثم يعرض على الناس أن يروها، ويبدو أن هذا لم يُشبِع جنونه، فصار المُختَل يطلُب نقودًا منهم أيضًا، ثم توحَّش فضولهم فطلبوا التجربة، ثم أعجبهم الأمر فصار إدمانًا، لكن بالطبع لم يتعد عدد زبائني عدد أصابع اليد الواحدة، ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فبعد قليل ملَّ زبائني الأحلام الست الموجودة على الأجهزة، من الصعب أن تقتنص مُغامرة تستحق الرؤية في الأحلام، كان لديّ من

الأحلام ست، مُغامرة لجاسوس في دولة أجنبية مليئة بالركض والمُطاردات، مباراة نهائي كأس العالم التي تهبط فيها من المُدرجات وتُصمِّم أن تلعب للمُنتخب بعد إصابة نجمه الأول وبطريقة ما يوافق الحكم ولا يجد الأمر غريبًا، تحرز هدفًا في اللحظة الأخيرة لتأتي لنا بالكأس وتُصبِح بطلًا شعبيًا، يوم في حياة نجم مصر الأول في الغناء والتمثيل والتمتُّع بنعيم رغد الحياة وثرائها دون رقيب، مُباراة مُلاكمة حامية الوطيس تنتصر فيها على محمد علي كلاي ومايك تايسون وسي إم بانك سويًا لتحظى بقلب مارلين مونرو التي تترك رشدي أباظة وتهيم بك عشقًا، مُغامرة في عالم غريب مُمتِع يُدعى زراد لتُحارب فيه الغيلان وتتمتَّع بصُحبة النبلاء الحديديون، وحلم أخير لمُغامرة تنقذ بها جُندي صديق من براثن جنود الدولة المُعادية وسط حرب ضروس

اليوم كان يومًا مُهمًا، لأنني سأضيف حلمًا جديدًا إلى مكتبتي، والمُختلِف في الأمر أنه كابوسي الأول، سأُحدِّث مكتبة الأحلام في متجري الصغير، لتَحتوي على ستة أحلام وكابوس واحد

لكنني لم أعلم أن هذا الكابوس سيكون نقطة التحوُّل في كُل شيء

كُنت أجهل أن هذا الكابوس سيُغيِّر عالمي..

للأبد..

(3)

استيقظت من نومي وأنا أشعُر بالكسل، أشعة الشمس التي تتسلّل من بين ثنايا الستارة المُعلقَة، تدفئ الجو البارد قليلًا، فركت يدي في محاولة لاستجداء الدفء، لكنها كانت محاولة بلا جدوى، بعينين يسكنهما الكسل نظرت إلى الشاشة، بضع دقائق وينتهي النقل، وبعدها سأتأكّد أن الكابوس على ما يُرام وهي عملية لا تستغرِق الكثير من الوقت، ومن ثم يُصبِح الكابوس جاهزًا للعرض

جلست على مقعد الحمّام وأنا أفكّر في اسم للكابوس، هنا تأتيني أعظم الأفكار، ينتظرني الوحي هنا بأعظم الحُجَج والبراهين، أنا مُتأكّد أن أعظم اختراعات العالم بدأت من دورات المياه، حسنًا.. سأسميه (الغُميضة) وسأُصمِّم غلافًا دعائيًا مُرعبًا لأعلقه على باب المتجر ليجذب الزبائن له، هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها كابوسًا ضمن مكتبة أحلامي، ولأصدقكُم القول.. أنا متخوِّف من هذا الأمر، المتجر يُدعى متجر الأحلام، والجهاز اسمه جهاز تسجيل الأحلام، لا وجود للكوابيس ها هنا، لكن الأمر وبكُل تأكيد يستحِق التجربة، خرجت من دورة المياه وأنا أُعدِل من وضع ملابسي

حسنًا.. الساعة العاشرة صباحًا، لا زال لدىّ وقت كافي لتناول طعام الإفطار وتصميم الغلاف الدعائي للكابوس قبل التوجُّه للعمل، تناولت لقيمات سريعة وأنا أجلس أمام شاشة الحاسوب المحمول الخاص بي، فتحت برنامج التعديل على الصور (الفوتوشوب) وبدأت أتجوّل بسفينة أحد مُحرّكات البحث في بحار الإنترنت

بحثًا عن صورة تصلُح كواجهة رئيسية للكابوس، رأيت صورًا كثيرة تندرج تحت تصنيف الرعب، منها ما جعلني أشعر بالخوف، منها ما جعلني أتوتَّر بحق، منها ما أثار حفيظتي، ومنها ما أضحكني من قلبي حقًا

لكنني في النهاية وجدت ضالتي في أحد المواقع الغير شهيرة، وكان هذا مُناسبًا لي لأنني لن أشتري حقوق ملكية الصورة، ولحُسن حظي لم تكُن الصورة ملوثة بأي علامات مائية، وضعت الصورة التي كانت صورة طفل ترتسم على ملامحه أعتى علامات الخوف وهو يُمسِك بيده عود ثقاب دون أن تكشِف لنا الصورة عن مصدر خوفه أو سبب رعبه، كان هذا مُناسبًا لي، جُثث أطفال مُقطعة في الخلفية، وبيت قديم على اليمين، أرضية تُرابية نحاسية اللون، بضع بقع الدم هنا وهناك، وبخط يتموَّج كأنه يذوب بدأت أكتب الجُمل الرئيسية على الغلاف

(كابوس جديد.. الغُميضة)

(اللعب من منظور آخر)

(جربه الآن)

جعلت لون الجُمل أحمر لتبدو وكأنها تنزف دمًا، كان تصميمًا رخيصًا يفتقد لكثير من الاحترافية، لكنه على ما يُرام ليليق بمتجر يفتقد لكثير من الزبائن!

ارتديت ملابسي، وضعت حاسوبي المحمول في حقيبته، تأكدت من وجود بطاقة الذاكرة التي يستقر بها الكابوس، تأكدت من مفاتيحي وهاتفي المحمول، كُل شيء على ما يُرام

بسم الله الرحمن الرحيم.. لنبدأ يومنا

أسوأ قرار ستتخذه في يومك هو أن تترك منزلك لتهبط لمواجهة هؤلاء البشر الأوغاد، سيتحتَّم عليك حينها أن تتعامَل مع العُقد النفسية لكُل شخص ستُقابله

في يومك بلا أدنى استثناءات، مع مُلاحظة أنهم جميعًا مُجبرين على التعامُل مع عقدك النفسية التي لا مثيل لها

لكنني وللأسف الشديد مُجبَر على ذلك لأنني أحتاج حقًا لهذا العمل، على الرغم من أن معي من النقود ما يكفيني - على الأقل في الوقت الحالي - لكنني حقًا أحتاج لأي شيء يُلهيني عن التفكير في حياتي اللطيفة المليئة بالفشل، ويُشتتني عن الأفكار السوداوية التي صار من روتينها أن تهاجمني يوميًا لتعبث بسلامي النفسي قبل أن ترحل مع وعد بتكرار الزيارة في الغد

وصلت إلى متجري بعد رحلة قيادة لم تستغرق ساعة، سببت فيها تسعة وثلاثون شخصًا، منهم ستة عشر وصل الأمر لأمهاتهم، وثلاثة وصل الأمر لجدودهم، كدت أتشاجر مع خمسة على الأقل، ورمقت ثلاث بنظرات كانت ستقتلهم بوحشية لو أن النظرات تقتل، لكن ها أنا في النهاية أقف أمام متجري حي أرزق، يوم لطيف

فتحت المتجر وعلقت اللوحة الدعائية داخل زجاج فاترينة العرض الأمامية، وضعت حاسوبي على المكتب، شغلت بعض آيات الذكر الحكيم، قُمت ببعض أعمال الصيانة والنظافة البسيطة قبل أن أعود إليه مرة أخرى، أجلس على الكُرسي المُريح وأنا أتثائب، أشعُر بالكسل، أنظر في ساعتي، مازال اليوم طويلًا، إذن فلأفعل ما أفعله كُل يوم، أشاهد المسلسلات الأجنبية لأتيه في عوالمها ناسيًا كُل ما يحدث من حولي، عادةً يستقبل متجري عميلين كُل أسبوع، لذلك لا مانع من مُشاهدة بعض أجزاء تلك المُسلسلات في يوم واحد أحيانًا أو أيام مُتتالية أحيان أخرى، هواية جديدة.. لكن لا بأس بها

تناولت طعام الغذاء من مطعم شعبي قريب مع الحاج رفاعي صاحب محل العطارة القريب، رجل لطيف المعشر خفيف الظل، أصبح تناولنا للطعام سويًا

عادةً يومية لا تتغيَّر منذ وفاة زوجته، ولأن الأمر يروقني، حرصت على إحياء هذه العادة يوميًا

هذا المُسلسل شيِّق للغاية، أحداث مُثيرة، تمثيل جيد، تصوير مُبهِر، وإخراج عبقري، جذبتني أحداث الحلقة الأولى وأوقعتني في شباك من إثارة وترقُّب، سلمتني حلقته الأولى للثانية أسيرًا مفتونًا بروعة السيناريو والأحداث المُحكَمة، والثانية سلمتني للثالثة وهلم جرًا إلى أن وجدت نفسي في الحلقة العاشرة، متوسِّط الحلقة الواحدة ساعة تقريبًا دون احتساب أوقات تناول الطعام أو دخول دورة المياه، في يومٍ بلا أي زبائن، لذا لم أتعجَّب كثيرًا حين وجدت الليل على وشك أن ينتصِف، أغلقت حاسوبي المحمول، ووضعته في حقيبته وأسجيته أسفل المكتب وأنا أتجهَّز لإغلاق المتجر

حقيقة طريفة، رغم أننا في أحد الأحياء الشهيرة إلا أنه حي هادئ للغاية، لذا حين نأتي للساعة العاشرة مساءً تُغلَق كُل المحال وتخلو الشوارع، يتحوَّل المكان لمدينة أشباح بشكلٍ حرفي للغاية، مُعتاد على إغلاق المحل مع باقي المحلات في العاشرة لكنني تأخرت اليوم قليلًا، أخبرت نفسي أن ساعتين من التأخير لن يحملا ضررًا بالغًا، أليس كذلك؟

إجابة خاطئة!

سمعت صرخة شنيعة جمدت الدماء في عروقي، صرخة نسائية لفتاة صغيرة في السن، أو امرأة ذات صوت حاد، تصرُخ برعب لا مثيل له، ارتجف قلبي هلعًا، ترى ما الذي رأته هذه المرأة لتصرخ بهذا الشكل، المُرعِب في الأمر.. أنها ليست بعيدة عن هنا أبدًا!

بدأت في روتين إغلاق المحل بشكلٍ سريع وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأنني لم أسمع شيئًا أو أن أحدهم ترك تلفازه عالي الصوت بشكلٍ مُبالغ فيه، رغم أنني

أعرف جيدًا حقيقة ما سَمِعت، لكن في بعض الأحيان التجاهُل يكون هو الحل الأمثَل، لكن صرخة أخرى شقت صمت الليل المهيب، هذه المرة لا مجال للتجاهل مهما حاولت

خرجت من المتجر بحذر وأنا أنظر للشارع يمينة ويسارًا، لا شيء، الشارع فارغ تمامًا.. صامت تمامًا.. لا حياة به إلا من بعض الحشرات التي التفت حول المصباح الكبير المُعلَّق على عامود إضاءة معدني طويل وأخذت تأز في غضب وعصبية

عُدت للمتجر بخطواتٍ مُرتعدة، ألملم أشيائي في سُرعة وعصبية، يجب أن أرحل من هنا قبل أن يحدث ما لا يُحمَد عُقباه، أحاول أن أتحرَّك سريعًا، أعيد التأكُّد من كُل شيء، معي هاتفي المحمول، حاسوبي المحمول، مفاتيحي، ونقودي

حسنًا كُل شيء على ما يُرام

الفتُّ لأخرج من المحل لكنني رأيتها، تقف على باب المتجر وهي تنشَّج برُعب، ملابسها مُمزقة، مُستحضرات التجميل التي تضعها تسيل على وجهها الجميل، شعرها أشعث ثائر، تحاول أن تُخفي مفاتنها بيديها وبما تبقي من قميصها، يسيل الدم من أنفها

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أشعر بقلبي يكاد يخترق صدري

تبًا.. أنا في ورطة!

***

كُنت أجلس على مكتبي وأنا أشاهد التلفاز الصغير ذو الصورة المشوَّشة، أضحك من قلبي على نكات إسماعيل ياسين وطريقته، رحمه الله.. لم يأت من يُضحِك المصريين من قلوبهم مثله، سمعت صوت خطوات ثقيلة تقترب من المتجر، خطوات مُتعجِّلة تشي بغضب أصحابها، شعرت بالتوتُّر، تحفزت في مقعدي وأنا

أراقب حقيبة الحاسوب المحمول التي ترتكِن إلى الحائط، تردَّدت للحظة، هل أغيِّر مكانها، لأضعها في مكانٍ غيرِ ظاهر؟ أم أنها بأمان هنا؟ ويبدو أن تردُّدي طال عن اللازم، لأنني رأيت الظل يقترب من باب المتجر، قبل أن يحل الجسد محل ظله بعد لحظات، وقفوا على الباب يتأملونني بصمتٍ، وكأنهم ينظرون لحيوانٍ غريبٍ أو مخلوق غامض

ثلاثة شباب في أواخر العشرينات من أعمارهم، الشر يحتل القاسِم الأكبر من ملامحهم، سُمر البشرة، يغلب عليهم الغضب والانفعال، كان أحدهم يسبق الإثنين الآخرين، مما يشي بأنه قائدهم أو أكثرهم قوة، مُنعقد الحاجبين مما يشي بغضبٍ شديد، أسمر البشرة، التي - رغم لونها - لم تُخفي أثرًا لجرحٍ ترك أثرًا في وجهه وكأنه يُخبِر الناس أنه مُعتاد على افتعال المشاكل، يرتدي قميصًا أحمر اللون وبنطال من الجينز الأزرق القديم باهت لونه، خلفه يقف إثنين، عن يمينه زميله قصير القامة لكنه عريض البنيان، يمتلئ جسده بالعضلات غير المُتناسقة بشكلٍ بشعٍ يشي بأنه مُعتاد على تناول حبوب الأمينو والبروتينات مجهولة المصدر التي تُباع في بعض صالات التدريب، يُمسِك بيده حزامه الذي حرره من بنطاله الذي يكاد يتركه ويسقط مُعترضًا على حجم وسطه النحيل الذي لا يتناسب مع نصفه العلوي، أما ثالثهما فكان طويل القامة، نحيل، أصلع الرأس ويبدو أنه ليس في كامل وعيه، يترنَّح على الرغم من أنه يقف بلا حراك، سألني الشاب الذي يتقدمهم بخشونة: " أين هي؟"

سألته بدهشة وأنا أجهل تمامًا عمّ يتحدَّث: " من هي؟"

أصدر صوتًا يشي بالاعتراض من أنفه قبل أن يقول: " هل يبدو أننا هنا من أجل المزاج أيها الأحمق؟ أين ذهبت الفتاة التي دخلت إلى هذا الشارع؟"

رفعت كتفي وأنا أقول بصدقٍ بالغٍ: " لم أر أي فتيات تمُر من هنا، ربما دلفت إلى مدخل أي بيت من البيوت؟"

قال الشاب المُترنِح مُتلعثمًا: " لكننا.. لكننا فتشنا كُل.. كُل البيوت ولم.. لم نجدها.. إذن لابد وأنها.. وأنها هنا"

وافقه الإثنين الآخرين على ما قال: " أجل، لقد فعلنا هذا"

أخرج قائدهم مطواة من أحد جيوبه وهو يفتحها بحركة سريعة، أصدرت صوت فرقعة وهي تُفتَح في الهواء، أشار لي بها وهو يقول: " لقد دخلت إلى هذا الشارع أمام أعيننا، فتشنا كُل البيوت السابقة ولم نجد لها أثرًا، وهذا شارع مسدود ينتظرنا حائط من الطوب في آخره، وأنت المحل الوحيد الذي يفتح أبوابه في مثل هذه الساعة، الأمر لا يحتاج لأحمد عويس ليخبرني بمكانها؟"

سألته بدهشة: " أحمد عويس؟ من أحمد عويس؟ هل تقصد الدكتور أحمد زويل - رحمه الله - الحاصل على جائزة نوبل؟"

أجابني القصير ذو العضلات: " لا، نقصد أحمد عويس، صديقنا الذي يجلس معنا على القهوة، والآن كفاك إضاعة للوقت وأخبرنا أين هي؟"

قال المُترنِح: " لابد وأنها.. وأنها هنا"

ابتعدت عن المكتب وأنا أشير لهم بيدي في إشارة ذات مغزى واضح وأنا أقول: " لكم مُطلَق الحُرية في تفتيش المتجر لو أردتم"

لوَّح لي القائد بمطواته وهو يقول بعصبية: " سأحطِّم هذا المحل على رأسك أيها اللعين، إن لم تُخبرنا أين هي؟"

قُلت له بجدية واضحة: " افعل ما شِئت، لكنني لن أخبرك بأي شيء، هل تعلم السبب؟ لأنني لا أعلم أي شيء"

قبل أن ابتسم بسُخرية وأنا أقول مُستمتعًا: " يؤسفني أيها السادة أن أخبركم بالأمر.. لقد سقطت في فخها، ومن حُسن حظكم أنني هنا"

انعقد حاجبا القائد وهو يسألني: " ماذا تقصد أيها المأفون؟"

وبدأت شرحي بأريحية: " أنتم وقعت في فخ الشعثاء، إحدى الأساطير الحضرية الشهيرة للغاية، قصة يتناقلها الأجيال، جيلًا تلو الآخر، الكُل يخشاها، الجميع يخافها، يهابونها للغاية، كانت الشعثاء فتاة جميلة بشكلٍ مُبهِر، جميلة لدرجة أن أي شخص كان يراها كان يغرق في حُبها، وهي كانت كأي فتاة، فَرِحة بالشباب الذي يتساقط كالذباب في شباك عشقها، إلى أن رآها أحد البلطجية وأحبها، حاول أن يستدرجها لطريق الحرام، لكنها تمنعَت، حاول أن يخطبها لكنها تدلَّلت، طلبها للزواج لكنها رفضته، وهو الذي لا يُرفَض، تتمنى أي من نساء المنطقة أن ينظر لإحداهن فحسب، حتى لو كانت متزوجة، ستترك زوجها من أجل أن تركَع تحت قدميه، كان غضبه قويًا، اجتمع مع رجاله في أحد الأيام وأخبرهم بنيته في قتلها، لكن أحد رجاله وقد كان مُقربًا منه استطاع أن يُقنعه بتغيِّير رأيه، قالها بثقة وسط الاجتماع: " اغتصبها يا معلِم، اكسر عينها واجعلها عبرة لنساء الشارع أجمَع"

وعلى ما يبدو أن الأمر أعجَب البلطجي، لأنه ابتسم وهو يعبث في شاربه مُفكرًا، ما المانع؟ سيحظى بلقاءٍ جنسي مع الفتاة التي تُعجبه، وسيجعلها عبرة لأي فتاة أو امرأة، ستُفكر إحداهن ألف مرة قبل أن تقول له لا، ولأن الفكرة أعجبته شَرع في تنفيذها في اليوم التالي مُباشرةً، انتظرها حين عادت من عملها، وطاردها إلى هذا الشارع، وهنا اغتصبها، وحين انتهى منها تركها لرجاله، لم يدركوا أنها ماتت من الإعياء إلا بعد وفاتها بنصف ساعة على الأقل، تركتها الذئاب البشرية هنا في هذا الشارع جُثة هامدة، مُقطعة الملابس وشعثاء الشعر، اعتقدوا أن الأمر انتهى.. لكن الشعثاء كان لها رأيًا آخرًا

بدأت في الظهور مرة أخرى، تأتيهم وسط الليل، في الظلام، حين يكونوا بمفردهم، تقتَص لمقتلها، تتركهم جُثثًا هامدة يرتسم على وجوهها أعتى علامات الفزع، لا يدري أحدهم كُنه الشيء الذي يرونه قبل أن يموتوا، لكن تعبيرات الرعب المحفورة على وجوههم تقتل أي فضول لدي السائل

من يومها وهي تظهر هنا في أوقات متأخرة من الليل، مثل هذا الوقت، لتستدرِج الشباب المفتونين بجمالها إلى هذا الزقاق، وحينها تتبدَّل هيئتها من فتاة جميلة إلى كائنٍ بشعٍ، يأكل لحومهم ويمتص دمائهم، يتركهم جُثث هامدة كخُرق بالية من القماش القذر ويتوارى في الظلام ينتظر ضحيته التالية

من حُسن حظكم أنني هنا، اليوم تأخرت في إغلاق المتجر، ويبدو أن الله جعلني هنا مُنقذًا لكُم من براثن الشعثاء، اهربوا.. انفدوا بجلدكم، نسيت أن أخبركم شيئًا أخيرًا، تقول الأسطورة أن هناك صاحب متجر يُساعدها، تأتيه بالضحايا وتذهب لتستعِد، يحكي لهم قصصًا وأساطير إلى أن تأتي من خلفهم و.."

لم ينتظر أي منهم إلى أن أنهي حديثي، ركضوا كالمجانين وأحدهم يصرُخ كالفتيات الصغيرات، راقبتهم وهُم يتعثرون في بعضهم البعض قبل أن يسقُط أحدهم أرضًا، تركه الآخران كأن لم يكُن، قام ودون أن ينظر خلفه استمر في الركض خلفهما، إلى أن اختفوا جميعًا عن ناظري

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أشعر بحركة خافتة من خلفي، أغلقت عيني وأنا أتنفس بعُمق قبل أن أنظر من فوق كتفي لأرها

تقف خلفي، مُقطعة الملابس، شعثاء الشعر، جميلة كأفروديت إلهة الجمال الإغريقية

وتنتظرني..

***

صوت ضحكاتنا كان صاخبًا، رغم حالتها النفسية السيئة إلا أنها كانت تضحك من قلبها، تضم قميصها المقطوع على جسدها، وتحاول أن تكفكف دموعها التي تنهمِر حتى وهي تضحك، سال كحل عينيها فزادها جمالًا، الجمال المُمتزِج بالحُزن دومًا ما يأسر قلوب الرجال، ما بالك وهي تضحك رغم دموعها، يا إلهي.. هل أنا في الجنة؟ تأملت ملامحها، عيون المها المُترقرقة بالدمع، الأنف شديد الجمال، الشفاه المليئة التي تبتسِم وقد غطاها طلاء أحمر زاد من جمالها، الملامح التي خُلقت ليُضرَب بها المثل في الجمال، هذه فتاة تستحق أن توضع صورتها في المعاجِم والقواميس إلى جوار كلمة (جَمَال) لتكون مرجعًا لكُل من لا يفهم الكلمة، فوَّت قلبي دقة لكنني تجاهلت الأمر وأنا أخلع معطفي وأعطيه لها قائلًا: " حجمه كبير عليكِ، لذا سيكون من المُمكِن أن تُغلقي سحابه لتُخفي آثار قميصكِ المُمزَّق كيلا يراه أحد إلى أن تصلي إلى منزلكِ"

تناولته وهي ترتديه فوق قميصها، تأملت جسدها للحظة قبل أن تُغلِق السحاب، جسدها أبيض كالمرمر، غض رجراج، لا لستُ منحرفًا، لكن صعبة مقاومته للغاية، ضحكت دون أن تدري بأنني اختلست نظرة إلى جسدها الفاتن وهي تقول من بين دموعها التي بدأت تقل بعد أن هدأت عواصف حزنها: " لكنك فظيع.. أقنعتهم بالأسطورة وزرعت الخوف في قلوبهم بكُل ثبات"

تجهمت وأنا أقول: " ومن أخبركِ أنها أسطورة، الأمر حقيقي تمامًا!"

تبدلت ملامحها واحتل الخوف قسماتها للحظة، رباه.. فاتنة حتى في خوفها، لم أستطع أن أتمالك نفسي فضحكت، ضحكت من قلبي وأنا أقول: " يبدو أنني مُمثِل بارع، لقد نجحت في خداعكِ أنتِ الأخرى"

ضربتني بيدها بدلالٍ أنثوي من النوع الذي يجعل الرجال المُمتلئين بالوداعة على إستعداد للتحوُّل لمُحاربين من طرازٍ رفيعٍ مُستعدين لاحتلال العالم بأسره من

أجل إحضار تفاحة لفتاة مثلها وهي تقول: " أنت أحمق، لكن من أين أتيت بهذه الأسطورة؟"

سعلت وأنا أقول: " ارتجلت الأمر بأكمله، كان لابد من التصرُّف كي لا أسمَح لهم بالتفكير في تفتيش المتجر وإلا وجدوكِ مُختبِئة أسفل المكتَب، وحينها كانوا سيقتلونكِ ويغتصبونني"

سألتني مُندهشة: " ماذا؟"

انتبهت لخطئي فعدلته سريعًا: " آسف.. سيقتلونني ويغتصبونكِ"

ضحكت مرة أخرى وأنا أراقب ضحكاتها بقلبٍ يكاد يركع تحت أقدامها، ابتسمت وأنا أقول: " نحن في منطقةٍ شعبية، هنا.. يُصدقون في الخرافات والحكايات المُرعبة، فكرت سريعًا ووجدت أن هذا هو الحل الأمثَل، كان على أن أرتجِل.. وعلى ما يبدو نَجَح الأمر"

قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها: " حمدًا لله.. يبدو أن الكُحل قد سال، أبدو بشعة.. أليس كذلك؟"

بشعة؟ أأنتِ حقيقية أصلًا؟ هل يوجد من هي بمثل هذا الجمال على سطح هذا الكوكب البائس؟ هل تعيشين وسطنا؟ تأكلين أكلنا وتتنفسين هوائنا؟ أم تراكِ مخلوقة هاربة من جِنان الله إلى أرضنا البائسة؟

يبدو أنني صمتُّ طويلًا لأنها سألتني في دهشة: " مرحبًا.. هل تسمعني؟"

شعرت بالارتباك، أشحت بوجهي بعيدًا كي لا ترى خجلي الذي نَتَج عن امساكها بي وأنا أفكِّر بها، وكأنها تستطيع أن تقرأ أفكاري، حاولت تغيير الموضوع سريعًا فسألتها بحذر: " سامحيني في السؤال.. لكن ماذا تفعلين هنا؟"

ابتسمت وهي تقول: " راهنت نفسي أن فضولك سيقودك لهذا السؤال في

النهاية.. خصوصًا مع الزي الذي أرتديه، على الأرجَح أنك تُفكِّر الآن في أنني ساقطة واختلفت معهم على النقود أو شيء كهذا؟"

تراجعت للخلف على مقعدي وأنا أقول: " حاشا لله.. لا أبدًا، أستغفر الله العظيم أن أظن بكِ مثل هذا الظن"

ضحكت وهي تقول: " يبدو أنني أنا الأخرى مُمثلة بارعة لأنني نجحت في خداعك، الأمر وما فيه يا حضرة أنني كُنت في زيارة لإحدى مُتابعيني على شبكة التواصل الاجتماعي ولم أنتبِه للوقت، وحين قرَّرت أن أذهب للمنزل، رفضت سيارتي الاستجابة للأمر، ومن هنا تسلمني هؤلاء البلطجية وحاولوا الاعتداء عليّ لكنني نجحت في مقاومتهم وفي الهروب إلى أن وقفت على باب متجرك، وأعتقد.. أعتقد أنك تعرف بقية القصة"

قاطعتها ضاحكًا: " لحظة.. لحظة، إحدى مُتابعينك على شبكة التواصل الاجتماعي؟ هل أنتِ شهيرة أو شيء كهذا؟"

فتحت حقيبتها الصغيرة وهي تُخرج منها بطاقة صغيرة، أعطتها إليّ وهي تقول: " أنا هنا الصيَّاد.. Coach Life أو مُخطِّطة حياة كما يقولون، أحظى بشُهرة بأس بها على شبكات التواصل الاجتماعي، عدد مُتابعيني على موقع Twit-ter فقط تجاوز الثلاثة ملايين مُتابِع، أكتب بعض النصائِح اليومية، وأصوِّر بعض الفيديوهات الأسبوعية التي تصدر على قناتي على موقع YouTube، مُنذ أيام تواصلت معي إحدى مُتابعاتي لتُخبرني بأن شقيقتها الكُبرى المُصابة بمرض السرطان اللعين في حالة نفسية سيئة وتتمنى رؤيتي، وفورًا حدَّدت معها موعدًا يناسبنا جميعًا وأتيت لزيارتها، والباقي أنت تعرفه"

مدَّدت يدي لأصافحها، بدا الأمر وكأنه مزاح، لكنني كُنت أحتاج للمسها

كي أتأكَّد أنها حقيقية مثلنا، صافحتني وهي تقول: " وأنت يا مُخترِع الأساطير الحضرية.. من تكون؟"

قُلت بلهجة لا تخلو من فخرٍ زائفٍ: " أنا فؤاد حازم العراقي، مُخترِع سابق ويائس حالي، أدير متجري الصغير هذا في تأجير الأحلام عن طريق جهاز اخترعته لتسجيل الأحلام، الابن الوحيد لحازم العراقي، عالم، باحث، ومُخترِع حاصِل على جائزة الدولة التشجيعية"

انعقد حاجبيها الجميلين وهي تقول: " لحظة واحدة.. تأجير الأحلام؟ تسجيل الأحلام؟"

شرحت لها الأمر سريعًا بالتفصيل المُمِل، كانت تُنصِت لي باهتمام شديد، ويبدو أن الأمر أعجبها لأنني حين انتهيت سألتني بفضول: " هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن الأمر، هل بإمكاني تجربته؟"

ابتسمت وأنا أشير إلى أحد أجهزة العرض الموضوعة في فاترينة العرض قائلًا: " بإمكانكِ أن تستعيري أحد الأجهزة ليُمكنكِ مُشاهدة الحلم، وبالطبع لدينا مكتبة صغيرة من الأحلام، حوالي سبعة، بإمكانك اختيار ما يتوافق مع ذائقتكِ"

رفعت حاجبيها في تعبير دهشة فتَّان وهي تقول: " وما هي أنواع الأحلام المتوفرة الآن؟"

شرحت لها الأفكار الرئيسية للأحلام، لكن لاحظت لمعة زارت عينيها حين تحدثت عن الكابوس بشكلٍ خاص، انتهيت من شرحي وقالت دون تفكير: " أعطني الكابوس، أنا عاشقة للرُعب"

وضعت بطاقة الذاكرة التي تحمِل الكابوس في جهاز العرض وشرحت لها الخطوات البسيطة المطلوبة منها كي تُشاهِد الحلم في نومها، شكرتني وسألتني: "ألا توجد أي ضمانات؟"

ضحكت قائلًا: " في العادة آخذ من المُستأجِر بطاقته أو صورة منها، لكنكِ وبكُل تأكيد لستِ مُستأجرة عادية"

ابتسمت وهي تصافحني، لمعت عيني وأنا أشعر بملمس بشرتها الناعمة على يدي، قُلت لها بمُنتهى الرومانسية: " آنسة هنا، لا تنسي المعطف حين تعودين بالجهاز"

ضحكت من قلبها وهي تودعني وترحل لتتركني مُشتَّت بلا عقل، تائه بلا قلب، مجذوب جديد سينضَم لمدينة المجاذيب بسبب حُسنها الأخاذ

(4)

يرن هاتفي بإلحاحٍ غير مسبوق، لم يسبِق أن أتصل بي شخص بمثل هذا الإصرار، هذه هي المرة الخامسة أو السادسة التي أسمع فيها الهاتف، في كُل مرة ينتشلني من عالم الأحلام ليُلقي بي في أرض الواقع القاسية، أضغط على زر تعلية الصوت لأصمته، وأستغرق مرة أخرى في نوم متوتِّر، يقاطعني ثانيةً وكأنني فجأة اكتسبت أهمية غريبة لا أستحقها

في النهاية اعتدلت على فراشي وأنا أترك الضوء المُتسلِّل من النوم يطرد آخر أسراب النوم بلا رجعة ويُفسِح المجال أمام النشاط ليحتل جسدي الذي لم ينل كفايته من النوم بعد، بينما عقلي مازال يغُط في نومٍ عميق، لم أرتدِ الجهاز قبل أن أنام، أحتاج للراحة في بعض الأحيان، اليوم كان منها، تنهدت بعُمق وأنا ألعن السيد جراهام بيل، كرَّس الرجل حياته بأكملها من أجل أن يخترع جهازًا يُنغص عليّ صباحاتي ويحرمني من نومٍ هادئ، نظرت إلى الهاتف بغيظٍ، الحاج رفاعي العطَّار، ألا لعنة الله على التوابل بأكملها، أجبت على مُكالمته وأنا أبتسِم ابتسامة زائفة وأرحِب به

أتاني صوته عبر الأثير فَرِح مليء بالحماس وهو يُخبرني أن هناك صفًا من الزبائن يقفون أمام متجري، كدت أن أخبره أن يبلغهم بأنني في الطريق وسأكون أمامهم خلال ساعة على الأقل، لكن توقفت أمام كلمة غريبة في وسط كلام الحاج رفاعي، صف من الزبائن؟ أمام متجري أنا؟ المتجر الذي لم يدخُله أكثر من شخصين

في آنٍ واحد وكانا من مصلحة الضرائب، بالتأكيد هناك خطأ ما، من المُستحيل أن يذهب أكثر من زبونين إلى متجري أصلا

ابتسمت وقد فهِمت الأمر، سألته بذكاء: " عم رفاعي، هذا مقلب رامز جلال لهذا العام، أليس كذلك؟"

أتاني رده حادًا بشكلٍ سريعٍ عبر الهاتف، فسألته بدهشة: " لماذا سيرة الأم يا حاج رفاعي؟ حسنًا.. حسنًا، سآتي حالًا"

صمت قليلًا لأسمعه قبل أن أقول: " كفاك سبابًا يا رجل، خلال ساعة سأكون أمامكم، سامحك الله.. مع السلامة.. مع السلامة.. في رعاية الله.. مع السلامة.."

أنهيت المُكالمة دون أن أودعه، لو تركته على سجيته سيظل يلقي بالسلامات في وجهي لساعتين قادمتين، وأنا لا أملك الوقت الكافي لهذا، يجب أن أحل لُغز الزبائن الذين قرروا أن يتكدسوا أمام متجري في ظاهرة غريبة تحدث في العالم للمرة الأولى

ارتديت ملابسي على عجل وقرَّرت أن أتوجَّه لمتجري سريعًا

وبمُعجزة ما وصلت في أقل من ساعة لأجد الحاج رفاعي يقف بجوار متجري ليتحدَّث مع أحد الشباب صغار السن، لم يتجاوز الشاب عامه الثلاثين، يحمل فوق رأسه كمية كبيرة من الشعر الطويل المُجعَّد الذي يتناثر في كُل مكان وكأن صاحبه تعرَّض لصدمة كهربائية مُفاجئة، خلف هذا الفتى يقف صف من الزبائن لا يقل بأي حالٍ من الأحوال عن خمسون زبونًا، ينتظرونني، شعرت بالفزع يتسلَّل إلى قلبي الذي لم يعتد على مثل هذا المشهد، درت على عقبيّ وأنا أستعد للرحيل، لكن صوت الحاج رفاعي أتاني عاليًا وهو يقول: " ها قد حضر الأستاذ فؤاد صاحب المتجر، يا أستاذ فؤاد، يا فؤاد باشا"

اصمت، التزم بالصمت قليلًا يا حاج رفاعي، عرف الجميع أنني الأستاذ فؤاد،

وأنني صاحب المتجر وبكُل تأكيد بسبب صوتك الجهوري عَلِم الجميع أنني حضرت، استدرت ببطء وأنا أواجه هذا الجمع، أعض على أسناني من الغيظ وأنا أبتسم ابتسامة زائفة وأرحِب بهم جميعًا

فتحت المتجر ودخلت بخطى مُرتعدة لأقف في استقبالهم، سمعت صوت الحاج رفاعي يأتيني من الخارج: " سأسمَح لهم بالدخول واحدًا تلو الآخر"

دخل أولهم، كان فتي مألوف الوجه، لو رأيته وسط زحام من الوجوه لما تذكرته بعد ثانيتين، ابتسم وهو يحمِل بيده صندوقًا مُغلقًا، أعطاني إياه وأخبرني أن أفتحه، وضعته على المكتب وأنا أفتحه لأجد بداخله جهاز عرض الأحلام الذي أعطيته لهنا الصيَّاد البارحة، وفوقه بطاقة عملها الصغيرة، بها عناوينها على شبكات التواصل الاجتماعي ورقم هاتف خاص بها، وعلى ظهرها كتبت بخطٍ رقيق

(كتبت عنك وعن اختراعك في كُل مواقع التواصل الاجتماعي، الجهاز مُبهِر، لم أحظ بمثل هذه التجربة من قبل، ورباه.. تمنيت لو أنها لا تنتهي، أتمنى أن أستطيع رد ولو جزءً بسيطًا مما فعلت من أجلي، لعل وعسى أن تُساعدكَ منشوراتي التي كتبت في شُهرة جهازك وانتشار اختراعك بالقدر الذي يستحق وتستحق، رقم هاتفي الخاص موجود على هذه البطاقة، سأنتظر منك اتصالًا في القريب العاجل لتشكرني، أما معطفك.. فأسير عندي إلى أن يتسنى لنا لقاءً آخرًا، أرجو أن تكون تمتلِك غيره وألا تُصاب بالبرد بسببي.. هنا)

ابتسمت وأنا أقرأ كلماتها، وضعت البطاقة في أحد الأدراج وأنا أتأكَّد من وجود بطاقة الذاكرة بداخل الجهاز قبل أن أعيده إلى مكانه فوق أحد الرفوف، ودعت الفتي الذي يعمل مع هنا وشكرته على مجهوده بأدب قبل أن يرحَل

دخل إلى الزبون الذي يليه، حاولت أن أشرح له الأمر لكن على ما يبدو أن هنا قد قامت باللازم، لأن لديه فكرة عن كُل شيء، احتاج مني لقليلٍ من الشرح لماهية

الأحلام المتوفرة في مكتبة المتجر قبل أن يُقرِّر أن يحظى بكابوس الغميضة، مددت يدي لأعطيه الجهاز الذي بات ليلته في أحضان هنا، وغطى عينيها الكحيلتين التي سرقتا قلبي، حسدته في نفسي

أتاني الزبون التالي، يعرف بالأمر أيضًا بعد أن قرأ منشورًا لهنا على أحد شبكات التواصل الاجتماعي، رِحت له ماهية الأحلام هو الآخر، اتخذ قراره سريعًا دون تفكير

" أريد الكابوس يا Man"

انعقد حاجبي وأنا أفكِّر في الأمر، يبدو أن اليوم هو يوم المُصادفات الغريبة، لأول مرة في تاريخ متجري يطلب زبونان نفس الحلم، وهذا أمر لم أكُن مُستعِد له، طلبت منه أن يجلس وينتظر قليلًا ريثما أنقل له الحلم من على الحاسوب المحمول إلى بطاقة ذاكرة جديدة، جلس وسألته عن مشروبه المُفضَّل، أخبرني أنه يريد كوبًا من اللاتيه، لكن بالطبع عجوة القهوجي لو سمع كلمة لاتيه لظنّ أنني جننت، طلبت له كوبًا من القهوة الفرنسية، أتمنى أن يترك الأمر يمُر، دخل الزبون الثالث إلى المحل، ومن بعده الرابع ثم الخامس فالسادس، ولدهشتي كان طلب الجميع ثابت لا يتغير

" أريد الكابوس من فضلك"

" كابوس الغُميضة لو سمحت"

" بعد إذنك الكابوس"

لم تكُن هذه هي المُشكلة، نقل الكابوس من على الحاسوب المحمول إلى بطاقات ذاكرة خاصة بالأجهزة ومن ثُم تبديل بطاقات الذاكرة لتحميل الكابوس بدلًا من الحلم الأصلي لم تستغرق الكثير من الوقت

لكن المُشكلة الأكبر والأهم الآن هي أنني لا أملك سوى ست أجهزة عرض

فحسب، وهناك بالخارج ما يزيد عن أربعين شخص ينتظرون دورهم، وعلى الرغم من أنني رفعت سعر تأجير الجهاز لمائة جنيه بدلًا من خمسون في محاولة بائسة لاستغلال الفُرصة إلا أن الجهاز الواحد يتكلَّف تقريبًا خمسة آلاف جنيه، وأنا الآن أملك حوالي ستمائة جنيه هنا

بالطبع لديّ ما يكفي من النقود لصُنع عشرة أجهزة جُدد تقريبًا في المنزل، لكن هذا رأس مالي في الحياة، لا أريد أن أصنع المزيد من الأجهزة لتضح في النهاية أن الأمر كان (موضة) وانتهت بسبب منشورات هنا الصيَّاد، هذه مُجازفة أنا غير مُستعِد لها

اضطررت للاعتذار لباقي الزبائن مع وعد بإعادة الافتتاح بالغد، ويبدو أن أحدهم شَعَر بالفضول فسألني عن المُشكلة التي تمنعني من إمدادهم بأجهزة العرض، ما هذه الورطة؟ أمامي خيارين فقط لا ثالث لهما، إما أن أكذِب، ومن المُمكِن أن يكتشِف أحدهم كذبي لأجد نفسي في موقفٍ لا أحسد عليه، أو أن أصدقهم القول، ربما يجد أحدهم حلًا

وقفت على باب المتجر وأخبرتهم بالأمر، لا نملُك سوى ستة أجهزة عرض فحسب نظرًا لارتفاع ثمن تكلفتها ولأنني لم أكُن مُستعدًا لمثل هذا الإقبال المُفاجئ

لكنني لم أعرض المشكلة وأتجاهل الحل كما يفعل الكثيرون، أخبرتهم أننا سنُفعِّل نظام قوائم الانتظار، سيأخذ كُلًا منهم موعدًا ليأتي لتسلُّم جهاز العرض الخاص به وبه بطاقة الذاكرة التي تحمل الحلم الذي سيختاره بنفسه من القائمة الصغيرة الخاصة بمكتبة الأحلام عندنا، وعلى الرغم من أن هذا الحل لم يَرُق للكثيرين، إلا أننا وللأسف الشديد لا نملك أي حلول أخرى

بدأت بالفعل في تسجيل أسماء الزبائن في دفتر صغير أحمله معي تحسبًا لأي أفكار أو شيء كهذا، عادة قديمة لم أنجَح في التخلُّص منها، ويبدو أنها ليست

ضارة في النهاية، سجلت أسماء الجميع وأمام كُل اسم موعد سيحضر فيه لتسلُّم الجهاز بمُعدَّل ستة أجهزة في اليوم، مع وعد بإضافة المزيد من الأجهزة في أقرب وقت مُمكِن

لكن هناك أمر لَفَت نظري بشكلٍ كبيرٍ، هناك إجماع بنسبةٍ لا تقل عن خمسة وتسعين بالمائة على الكابوس، لا يرغبون في تجربة أشياء أخرى طالما الكابوس مُتَاح، يبدو أن تجربة الرعب - على الرغم من قسوتها - إلا أنها تجربة يرغَب بها العديدين، وهذه كانت مُشكلة أخرى

لضمان استمرارية المتجر، يجب أن أحافظ على السلعة التي تجذب الزبائن، بل وعليّ أن أطوِّر منها، ومن الواضح أن السلعة التي تستهدِف هذا النوع من الجمهور هي الكوابيس وعوالِم الرعب، ناهيك عن صعوبة اقتناص الأحلام المُميَّزة، ظللت عامًا كاملًا أنام لأحلَم، ولم أتمكَّن من اقتناص سوى ست أحلام يستحقون المُشاهدة فحسب، الأمر صعب، لا.. الأمر شبه مُستحيل

أنا في مُعضلة لا حل لها

يا رب

***

حين يدعو شخص بشيءٍ ما فيستجيب له الله سريعًا ويُحقِّق له ما تمنى، يقولون أن أبواب السماء كانت مفتوحة، ويبدو أن اليوم يوم حظي، وأن أبواب السموات السبع كانت مفتوحة، حين عُدت إلى منزلي قادني فضولي لفتح الحاسوب المحمول من أجل البحث عن منشورات هنا الصياد، أريد أن أرى ماذا كتبت عني وعن الجهاز، ما الذي جعل هؤلاء الناس يتحمسون بهذه الطريقة ويتوجهون لتجربة الجهاز بمثل هذا الإقبال الذي - وإن بدا ضعيفًا مُقارنةً بعدد مُتابعيها - كان أمرًا جديدًا على متجري

بحثت عن هنا الصياد على مُحرِك Google وفوجئت بحجم شعبيتها وقاعدتها الجماهيرية الرهيبة، لم أكُن أتوقَّع أن مُخطِّطة حياة كما تُطلِق على نفسها تحظى بمثل هذه الشعبية، لكن يبدو أن مواقع التواصل الاجتماعي غيرت قواعد اللعبة منذ حينٍ، لم يعُد المؤثِّر على أرض الواقع فقط هو من يُمسِك بيده راية التغيير وينتظره الجميع، بل أصبح هناك العديد من المؤثرين على مُختلف شبكات التواصل الاجتماعي، وعلى مستوى الوطن العربي.. هنا الصيَّاد واحدة من هؤلاء

بحثت عن المنشور الذي كتبته عني، وفي الحقيقة كان منشورًا مكتوبًا بحرفية بالغة، وكأنها تكتب عن مشروع يخصها أو أمر يهمها، وهذا غريب.. لم أتوقَّع مثل هذا الأمر من شخصية مشهورة مثلها، لكنها - جزاها الله خيرًا - كتبت الأمر بصدقٍ بالغٍ، وبالتالي صدقه عدد كبير من المُتابعين وتفاعلوا مع متجري، فتحت قسم التعليقات وبدأت أقرأ التعليقات واحدًا تلو الآخر، هناك من يتغزَّل في ملامحها الجميلة، آخرون يتركون أجزاء من كتاباتهم ويرجون مُتابعي هنا أن يُتابعوهم، هناك مُشاجرة صغيرة بين شخصين عن أمر ديني لا علاقة له بالمنشور، وعدة تعليقات تتعجَّب من الفكرة العبقرية التي لم يسمع عنها أحد من قبل، أما التعليقات الأخيرة التي تم كتابتها قبل سويعاتٍ قليلة فتتحدَّث عن أزمة نقص أجهزة العرض

ككنها لم تستجِب للأمر هنا، أغلقت موقع الـ Facebook وفتحت موقع Twit-ter وهناك وجدتها كتبت عن الأمر مجموعة من التغريدات، لكن لم يكُن هذا ما لَفَت نظري، هناك رجل أعمال شهير مُهتَم بالأمر، وأعاد تغريد الأمر، ابتسمت وأنا أرى حلمي يكبر أمام عيني، كتبت تعليقًا مُقتضبًا من حسابي الشخصي أشكرها فيه على اهتمامها، أغلقت الحاسوب ودلفت للنوم وعلى وجهي ترتسِم ابتسامة رضا وامتنان لتدابير القدر التي تُغدِق علينا بلا حساب حين لا نجِد من يحنو علينا

***

استيقظت في الصباح قبل ميعاد ذهابي للعمل بساعتين، دخلت إلى المعمل للمرة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ، وقفت أعلى السلم أراقبه وقد اكتسى بالغبار نتيجة قلة الاستخدام، كأنه يلومني على هجره وألومه على عدم الوصول لشيء، لكنا كالأحباب، نلوم ولا نهجُر

نظفت المكان قليلًا وبدأت في صُنع جهاز عرض جديد، لم يكُن الأمر بهذه السهولة، العلماء كلاعبي كُرة القدم، يحتاج كلاهما للمُمارسة كيلا تصدأ عضلاته، هذا بخلاف أنني أفتقد لكثيرٍ من المواد، لكن لا يُكلِّف الله نفسًا إلا وسعها، لأفعل ما أقدر عليه الآن، وحين أعود من المتجر سأحضِر بعض الأشياء الناقصة، سأحاول صُنع جهاز عرض جديد كُل أسبوع، أتمنى ألا أخسر في هذه المُجازفة كثيرًا، لكن الحياة فُرص.. والمجنون هو الذي لا يقتنِص الفرصة حين تلوح أمامه

أنهيت عملي وصعدت إلى غرفتي لأبدِل ملابسي، حين دلفت إلى الغرفة لَفَت نظري أن الهاتف شاشته مُضاءة، انعقد حاجبي وأنا أقترِب من الهاتف وأمسكه لأتفاجئ أن شاشته تمتلئ بالإشعارات، هناك من أحب تعليقي، هناك من شكرني في تعليقات تلته، آخرون يسألونني عن مكان متجري أو ساعات عملي، رجل الأعمال الشهير شكرني بشكلٍ خاصٍ في تغريدة مُنفردة، آلاف الإشعارات خلال ساعات الليل فحسب، الأمر يكبر وأخشى ألا أستطيع مواكبته، وسط هذا الحشد من الإشعارات أتتني مُكالمة العم رفاعي ليُخبرني بأن هناك صف آخر من الزبائن في انتظاري، وهذا الصف يكاد يصل لضعف صف الأمس، فكرت ألا أنزل من المنزل اليوم، لكن يجب أن أذهب لاستلام الأجهزة التي استأجرها بعض الزبائن بالأمس، ومن ثَم تسليمها للأشخاص الموجودين على قائمة الانتظار، كذلك سيجب عليّ أن أضيف الأسماء الجديدة للقائمة

حسنًا.. يبدو أنه يوم طويل

استعددت جيدًا وخرجت من منزلي، لكن قبل أن أصِل إلي سيارتي اعترضني ثور بشري ضخم، تكاد عضلاته تمزق قماش القميص المسكين الذي كادت أزراره أن تفارقه اعتراضًا على حجمه المُبالَغ فيه

شعرت بالضآلة وأنا أقف أمامه، كان يرتدي نظارة شمسية لامعة العدسات، عكست صورتي وأنا أقف أمامه مُنكمشًا كالفأر الصغير أرتجف هلعًا دون أن أحاول أن أخبئ شعوري اللعين هذا

أخيرًا وجدت شجاعتي تنكمش جانبًا وهي ترتعِد هلعًا، تسلحت بها قبل أن أسأله بصوتٍ مليء بالخوف: " ما.. ما الأمر؟"

وبصوتٍ جهوري قال: " تعال معنا وستعرف كُل شيء.. يوسف بيه يُريد أن يراك"

حاولت أن أسأله عن هوية يوسف بيه، أو حتى أن أعترض، أن أخبره أن لديّ متجر وصف زبائن في انتظاري، لكنه لم يترك لي الفرصة حتى للتفكير في الأمر، أمسك ساعدي بقبضة حديدية آلمتني كثيرًا وهو يفتح باب سيارة سوداء كبيرة كانت تقف في انتظارنا، قال بلهجةٍ آمرةٍ: " اركب يا سيدي من فضلك، ستعرِف كُل شيء حين تصِل إلى هناك"

سألته بذعر: " هناك؟ هناك أين؟"

قال بنفاذ صبر: " اركب يا سيدي"

دفعني برفق، لكن الأمر بدا وكأن مدفع رمضان قذفني داخل السيارة، اعتدلت على المقعد وأنا ألتقط كرامتي التي سقطت مني لأخبئها قبل أن يراها وينهرني مرة أخرى، ركب بجواري وهو يدفعني بعضلة غريبة بارزة من جانبه لم أعرف أن البشر يمتلكونها، تحسست جانبي بحثًا عنها ولكنني لم أجدها، تأملني وهو لا يفهم ما أفعَل قبل أن ينظر في المرآة الأمامية للسائق الذي كان نسخة طبق الأصل منه

وهو يهز رأسه، تحركت السيارة من فورها وكأنها تنتظر إشارته، تأملت السائق في المرآة قبل أن أسأله بفضول: " هل أنتم توأم؟"

لم يرد عليّ أي منهم وكأنني غير موجود، هززت رأسي وأنا أقول: " أكيد توأم، كُنت مُتأكّد"

رمقني بنظرة لا أراها من أسفل نظارته الشمسية لكنها كانت كافية لي لأنظر جانبًا وأنا أبتلع ريقي بصوتٍ مسموع في انتظار لقاء يوسف بيه

(5)

على الرغم من ضخامة أثاثه وعِرَض الموجودات به، إلا أنها لم تفلَح في محاولة إخفاء وسعه، مكتب واسع ضخم، تتوسَّط الأرض سجادة إيرانية يكفي ثمنها لسد رمق حي كامل، وفي السقف تتدلى ثُريا لم أر في جمالها من قبل، عن يميني ويساري حوائط مليئة بلوحات عالمية مليئة بمناظر طبيعية خلابة، لا أعرف هل هي نُسخ أصلية أم تقليد بارع؟ خلفي باب الغرفة، يحتَل جزء من يمين الحائط، وعن يساره هناك مكتبة خشبية ليست بكبيرة مليئة بكُتب إنجليزية يختلط فيها الأدب ببعض الكتيبات العلمية، وأمامي مكتب خشبي ضخم مُزدان بالحلي ومكتب طبي أسود اللون، لكن للأسف لا يوجد حائط خلف المكتب، بل لوح زجاج ضخم يكشف عن مشهد رائع للمدينة من أعلى

طلبوا مني الجلوس في انتظار قدوم يوسف بيه، لكن الأمر صعب، الفضول يأكلني، أتساءل عن الذي حدث، هل أغضبت أحد كِبَار الدولة باختراعي؟ بالتأكيد لا، هل أغضبت أحد رجال الأعمال بتغريدتي أو تعليقاتي؟ قطعًا لا، هل أغضبت أي أحد على الإطلاق؟ بالطبع لا

حاولت الجلوس على أحد المقاعد الموجودة أمام المكتب، لكن فضولي غلبني، وقفت بعد قليل وأنا أتحرَّك بخطوات مرتعشة نحو المكتبة، زاخرة كانت بالكُتب العلمية وبعض أعمال الأدب الغربي، أخذت أتأمَّل العناوين وأحاول تخمين

محتويات الكتب، كُنت في قمة التركيز لدرجة أنني لم أسمعه وهو يدخُل الغرفة من باب جانبي صغير

وقف بجواري وهو يقول بصوتٍ خافتٍ: " مكتبتي الصغيرة، أحفظ كُتبها حرفًا حرفًا"

انتفضت فزعًا، ابتسم وهو يمد يده ليُصافحني: " أهلًا يا دكتور فؤاد، أنا يوسف عبد الرحمن، شهير بيوسف بيه، رجل أعمال ومُستثمِر في مجال الإلكترونيات"

مدَّدت يدي وصافحته: " فؤاد حازم العراقي، عالم، باحث، ومُخترِع.."

قاطعني قبل أن أنتهي من تعريف نفسي: " مُخترِع جهاز تسجيل الأحلام، وصاحب أول متجر لتأجير الأحلام في العالم"

ابتسمت خجلًا قبل أن يُشير لي بالجلوس أمام المكتب، توقعت أن يجلس خلف المكتب، لكنه ولدهشتي جلس في المقعد المُقابِل لي، ضغط زرًا كان موجودًا على سطح المكتب لتدخل سكرتيرة حسناء ترتدي تنورة صغيرة تكشف عن ساقين من المرمر، بلوزة رقيقة شفافة بعض الشيء تغيِّب العقول، كيف تسمح الحكومة بمثل هذه المُسكرات، ألا يخشون غياب العقول؟

أمرها أن تُحضر لنا كوبين من القهوة، سألتني عن قهوتي المُفضلة قبل أن تتجه لتنفيذ الأمر أو لتُخبِر العاملين في المطبخ ليحضروا القهوة، بمُجرَّد خروجها من المكتب اختفت ابتسامته وهو يقول: " أنا مُهتَم باختراعك للغاية"

رفعت حاجبيّ في حيرة وأنا أقول: " لا أفهَم؟"

قال بمُنتهى الجدية: " لو أردت بيعه فأنا على أتم استعداد لشرائه، أعلم جيدًا أن العلماء أمثالك يعانون من الغرق في بحار الديون، رغم ميراثك الضخم الذي لم يتبق منه سوى مبلغًا مُخجلًا، حسنًا.. أنا على استعداد لأن ألقي لك طوق نجاة يتمثل في شيك به مبلغ لا بأس به"

شعرت بالغضب، الأمر يبدو لكم عاديًا، لكن بالنسبة لنا، يبدو الأمر وكأنه يُريد أن يشتري ابنًا من ابنائي، قُلت بصرامة: " الجهاز ليس للبيع يا حضرة"

نهضت وأنا أستعد للرحيل، سمعت صوته يقول ببساطة شديدة: " إذن اسمح لي أن أصبح الراعي الرسمي للاختراع، هل هذا مُمكِن؟"

وقفت مكاني مُتجمدًا، الفكرة تركض في ثنايا عقلي، الأمر مُمكِن، لا يوجد أي مانع طالما كانت براءة الاختراع باسمي والجهاز ملكي، عدت لأجلس أمامه وأنا أسأله: " أريد أن أعرف المزيد قبل أن أوافِق"

ابتسم وهو يعتدِل على كُرسيه ويبدأ في الشرح: " سنقوم بتصنيع أي عدد تطلبه من أجهزة العرض، بشرط أن يتم الأمر في أحد معاملنا وتحت اشراف مجموعة من مُهندسينا، وأيضًا سننقل المتجر الخاص به من هذا الزقاق الضيق، سنشتري لكَ محلًا في أحد الأسواق التجارية الشهيرة للغاية، وسيكون صك ملكية المتجر باسمك، وسيكون لك حُرية إدارته كيفما أردت وبالطريقة التي تراها مُناسِبة، سنُخصِّص لك كذلك منحة شهرية بمبلغ لا يُستهَان به من أجل الاستمرار في تطوير الأجهزة والبحث العلمي، ومنحة شهرية أخرى من أجل مصروفاتك الشخصية، بخلاف حملة الدعاية الضخمة التي ستنتشر في شوارع المدينة خلال الأيام القادمة، وكذلك على شتى مواقع التواصل الاجتماعي، هذا باختصار شديد، ما رأيك؟"

انعقد حاجبي بشدة وأنا أفكِّر في الأمر، ليس أمرًا طبيعيًا على الإطلاق أن يعرض عليّ كُل هذه المزايا دون طلب واحد على الأقل، ماذا سيستفيد من الأمر؟ هذا هو الأهم، وبكُل تأكيد ستتوقَّف موافقتي من عدمها على إجابة هذا السؤال

أقصر الطُرق للوصول لإجابة سؤال هي طرحه بشكلٍ مُباشِرٍ، لذلك سألته بسُرعة: " ماذا ستستفيد من الأمر؟"

ضحك من قلبه وهو يقول: " بالتأكيد سأستفيد بطُرق شتى، ارتباط اسم شركاتي باختراع حديث كهذا مع كمية المال التي سأضخها في الأمر كاستثمار، ستدفع باسمي للأمام في مجال البحث العلمي، هذا بالإضافة لحصولي على نسبة من إيجار الأجهزة"

فكرت في الأمر قليلًا قبل أن أقول: " يبدو لي أن الكفتين غير متساويتين، كفتي هي المائلة، هناك شيء لم تُخبرني به، أليس كذلك؟"

اتسعت ابتسامته وهو يقول: " أنا أعلم أنك ذكي، لكن يبدو أن ذكائك يمتَد لخارج المعمَل أيضًا، أنا أحب هذا"

لم أجبه، أنتظر اجابته من أجل تحديد مصير الأمر، ولم يُخيِّب ظني كثيرًا، بدأ في شرح الأمر: " سيكون من حقي الحصول على أي أحلام بها أفكار جديدة لمشاريع أو حتى أفكار تصلُح لأفلام، وسيكون من حقي التصرُّف بها بأي طريقة أراها مُناسِبة دون الرجوع إليك، لكي أوضح لك الأمر أكثر، لو حلمت أنت أو أي شخص آخر بأي فكرة وتم تسجيلها على هذه الأجهزة، ستُعرَض عليّ أولًا قبل أن تُقرِّر أنت مصيرها من الحذف أو العرض، لو راقت لي هذه الفكرة كفيلم سينمائي سأشرع في إنتاجها فورًا، دون أن يكون لك أي حق في الاعتراض، أو أي نسبة من أرباح الأمر، كذلك أي أفكار تصلح لاختراعات جديدة أو مشاريع مُبتكرة هي ملك أصيل وبشكلٍ كاملٍ لي أنا شخصيًا"

فكرت في الأمر قليلًا، لا مانع عندي في جزئية الأفلام، لكن فرضًا أنني حلمت بفكرة اختراع جديد أو بفكرة تُساهِم في تطوير أي اختراع آخر، بموافقتي على عقد الرعاية هذا ستكون الفكرة - رغم أنها من بنات أفكاري - ملكًا للبيه

حسنًا.. الأمر خطير، لكنني موافق

أريد لجهاز تسجيل الأحلام أن يكبر، أريد للأمر أن ينجح، وللأسف الشديد نحن في زمن يرتبِط فيه النجاح بشكل كلي على الأموال

مدّدت يدي أمامي لأصافحه وأنا أخبره بموافقتي

سمعت السكرتيرة ضحكات يوسف بيه المليئة بالسعادة وهي تطرق الباب لتسمح لأحد العاملين بالمطبخ أن يدخُل بكوبين القهوة، ابتسم يوسف بيه وهو يطلب منها أن تُخبِر المُستشار مُراد لبيب، المُستشار القانوني لمجموعة شركات يوسف بيه أننا في انتظاره

(6)

" القابِض الباسِط الخافِض الرافِع المُعز المُذِل السَميع البَصير الحَكَم العَدْل "

صَدَح صوت المُطرب الشهير وهو يُردِّد على مسامع الحاضرين أسماء الله الحُسنى للمرة الثانية، يبتسِم مُعظمهم في مُجاملة واضحة بينما يقف الآخرون في انتظار الافتتاح كي تسنَح لهم فُرصة التمتُّع بالعروض التي وعدناهم بها مع افتتاح المتجر الجديد والفرع الثاني من فروع متجر تأجير الأحلام

وسط الحشود أقف مُبتسمًا وأنا أرتدي حلة أنيقة من تصميم واحد من أشهر مُصممي الأزياء في الشرق الأوسط، تبدو على وجهي علامات السعادة وأنا أصافِح المُهنئين وأجيب تهنئتهم ومُجاملاتهم بكلمات شُكر أتمنى لو تُعبِر عن فرحتي دون ارتباك، لطالما كُنت خجولًا أخشى مواجهة التجمُعات

داخل المتجر تقف فتاتين حسناوتين تنتظران أن أقُص الشريط الأحمر اللامع لتبدءان في استقبال الزبائن، تحفظان الأحلام عن ظهر قلب، تعرفان كيف تشرحان للعميل الأمر، كيف تُقنعه بالشراء، مُخضرمتان في مجال المبيعات

أمسكت المقص وأنا أبتسِم في بلاهة أمام كاميرات القنوات التليفزيونية والصُحف التي أرسلها يوسف بيه لتغطية الافتتاح، أقُص الشريط وأضع المقص في علبة من القطيفة الحمراء وأنا أشير للموجودين بأن بإمكانهم الدخول الآن لتأجير ما رغبوا به من أحلام

عدد الأجهزة الموجودة في المتجر الجديد يفوق عدد الموجودين، يوسف بيه صَدَق في كُل كلمة وأوفى بكُل وعد، راقبت الفتاتين وهن تشرحان الأحلام الجديدة للموجودين، وصل عدد الأحلام في مكتبتنا إلى 45 حلمًا، هناك مجموعة من المتطوعين يتقاضون مبلغًا لا بأس به مُقابِل تسجيل أحلامهم، ومن ثَمَ انتقاء الأحلام المُناسبة لعرضها بالمتجر بعد تنازلهم عنها رسميًا لصالح المتجر، لكننا لا نملك سوى كابوسًا واحدًا

أغلق يوسف بيه المتجر القديم، فَتَح متجرًا جديدًا في أحد أكبر وأشهر الأسواق التجارية في البلاد، وها هو يفي بوعده ويفتِّتِح متجرًا آخرًا في سوق تجاري لا يقل في شهرته عن الأول، حلمي يكبَر، وأفكاري تتوسَّع

انسحبت في هدوء إلى مقهى قريب لأشرب كوبًا من القهوة، منذ مضينا عقود الشراكة بيني وبين يوسف بيه والأمور في تحسُّن، أغلقنا المتجر القديم الموجود في الحي الهادئ، افتتحنا فرع جديد، صنعنا مئات.. بل وآلاف أجهزة العرض بتقنيات جديدة مُستحدثة لتُرضي أذواق كافة الزبائن والعُملاء، نقلنا معملي الخاص لمعمل كبير مُصنَّع خصيصًا من أجلي وكي يُناسِب احتياجاتي، انتقى يوسف بيه ست أحلام ولم يسمَح لنا بعرضهم في المكتبة، لم يُخبرني ماذا سيفعَل بهم، وبصراحة لم أهتَم

لكن ظلت هناك عقبة واحدة فقط تقف في طريق نجاحي وتُعكِّر صفو تفوقي

مُكالمات يوسف بيه وصوته المليء بالحدة وهو يُطالبني دائمًا بالمزيد من الكوابيس، طبقًا لفريق المبيعات الذي يُراقِب الأمور عن كثب، لا تزال هي السلعة الأكثر طلبًا، ومازال كابوس الغُميضة هو أكثر شيء تم استئجاره من مكتبتنا، كابوسنا الوحيد، ونقطة ضعفنا الوحيدة

يبدو أن يوسف بيه يريد تحقيق المزيد من النجاح، في حقيقة الأمر أنا أيضًا أريد المزيد من النجاح، أدمنت رائحة الأوراق المالية، وعشقت رائحة الحلات

الجديدة ذات العلامات التجارية الدولية، أحب سيارتي الجديدة ذات الطراز الرياضي الحديث، أهيم عشقًا بحسابي في البنك وهو يتضخَّم أمامي

لذا كان على أن أجد حلًا لهذا، على أن أرضي يوسف بيه كي يستمر في ضخ الأموال والاستثمار في المشروع، عليّ أن أتصرَّف

لا أعرف سبيلًا للحصول على كوابيس جُدد، اقترح أحد العاملين في المشروع أن يُشاهِد المتطوعين مجموعة من أفلام الرعب قبل الذهاب للنوم، لكن لم ينجح الأمر، ما زلنا نُكمِل طريقنا بكابوسٍ واحدٍ

لابد أن نجد طريقة لخلق وصناعة كوابيس جُدُدْ

لابد أن تنمو مكتبة الكوابيس

نصحني أحد العاملين في الشركة باللجوء لما أطلق عليه الـ **Deep Web**، لم أكُن أعرِف ماذا يكون هذا الشيء، لم أسمع عنه من قبل، في البداية اعتقدت أنه يُحدثني عن موقعٍ مُعيَّن على شبكة الإنترنت، لكن بقليل من البحث والتنقيب وجدت أن الأمر أكبر وأخطر

هذا الجُزء من شبكة الإنترنت مَخفي بعُمق عن أعين الجميع، خصوصًا الجهات الحكومية والسُلطات، خصوصًا أنه يحتاج لمُتصفِّح مُعيَّن من أجل الولوج إلى عوالمه الخفية، عادةً ما يستخدم مُرتاديه برامج حماية قوية للغاية لتُخفيهم عن الأعين وتحمي بياناتهم من الاختراق، يقولون أن الأمر خطير للغاية، يُشبه دخولك له دون تجهيز

دخول فتاة صغيرة أسواق تجارة السلاح والمُخدرات في شوارع شيكاغو دون أن تحظى بحماية، وبالتالي ستتحوَّل سريعًا إلى هدف لعشرات المرضى النفسيين الخطرين للغاية، بل ودعني أخبرك أمرًا هامًا.. ستُصبِح فُرصة الفتاة الصغيرة في

الخروج من شيكاغو سالمة أكبر من فُرصتك في الخروج من الـ **Deep Web** سالمًا دون أن تقع في شِباك قاتل مُتسلسل أو مجنون يتحين فُرصة دخول فضولي دون حماية كافية

طلبت من هذا الفتى تجهيز حاسوب محمول بكافة وسائل الحماية اللازمة، وتنصيب المُتصفِّح اللازم لولوج هذا العالم الخفي دون أن أتحوَّل لذبابة مسكينة تطأ وكر عناكِب قاتلة، فتحت الحاسوب ووضعته أمامي، وجدت ملف **Word** مكتوب فيه كافة التفاصيل اللازمة وبعض النصائح التي وبكُل تأكيد كان أهمها ألا أفعل هذا الأمر في مكانٍ عامٍ، لذا أخذت كوب قهوتي وعدت إلى مكتبي في المتجر الجديد

أغلقت الباب بعد أن صافحت بعض المُهنئين اللطفاء، فتحت الحاسوب مرة أخرى، ودخلت إلى هذا العالم عبر المُتصفِح الشهير الذي يملك مفتاح الدخول، وكما حذرني الفتي، وجدت عوالم خفية من كُل شيء مُحرَّم ومُجرَّم يُمكِن أن يتخيَله أي شخص

مواقع مُتخصصة في الجنس المُحرَّم، وخصوصًا جنس الأطفال، مواقع وغُرف مُصممَّة خصيصًا لتعذيب البشر في شيء أشبه ببرامج ما يطلبه المُشاهدين، مواقع لبيع بعض الكُتب المحظورة والخطيرة ككُتب السحر والتعاويذ، مواقع ومُنتديات لتعليم الهاكر والاختراق، مواقع أشبه بمحلات الجزارة لكن تبيع لحوم بشر وبعض الأعضاء مع قسم صغير يشرح أفضل طُرق الطبخ والتقطيع، سوق صغير لبيع تركيبات كيميائية محظور تداولها، مواقع لبيع المُخدرات سواء الماريجوانا، الحشيش، أو حتى أنواع الحبوب المُخدرة الشهيرة، أسواق، مواقع، مُنتديات لتجارة السلاح بكافة أنواعه وأشكاله، بل أنني وجدت موقعًا منهم يبيع دبابات وطائرات حربية، مواقع للتجارة بجُثث مُخصَّصة لمُمارسة الجنس أو حتى من أجل التمثيل

بالجُثث، بعض ألعاب الكومبيوتر الممنوعة من العرض أو التداول، وأشياء أخرى كثير للغاية وخطيرة جدًا لا مجال لذكرها ها هنا

بعض النصائح التي أخبرني بها الفتي ألا أضغط على أي روابط في أي مكان بداعي الفضول، ألا أقوم بتحميل أي شيء من هناك لأن أي ملف سأقوم بتحميله سيحمِل معه عشرات الفضوليين الخطرين الذين سيخترقون كافة تفاصيل حياتي

بحثت كثيراً وطويلًا إلى أن اقتربت كثيراً من الشيء الذي أبحث عنه، وجدت بعض القتلة المأجورين في منطقة الشرق الأوسط، لكنني لا أريد قتلة، على أي حال.. هذا مؤشر جيد، أنا أقترب من وجهتي

فجأة وجدت ضالتي أمامي..

يُطلِق على نفسه لقب (المُتعهِّد).. يتعهَّد بإيجاد أي شيء تبحث عنه مهما كان، يضمن جودة عمله ودقته بشكلٍ لا يقبل الشك، ويَعِد بنتائج مُبهرة تسُر الناظرين

حسنًا أيها المُتعهِّد.. أتمنى أن تكون قادرًا على خلق بعض الكوابيس بطريقةٍ أو بأخرى بنفس الكفاءة

ضغطت على طُرق الاتصال به وكتبت رسالة طويلة، وجلست أنتظِر الرد

أتمنى ألا يطول الأمر

(7)

مُحقِّق شُرطة.. هذه وظيفتي، الثالثة والثلاثون.. هذا هو عُمري، القبض على الأشرار وكشف خباياهم.. تلك هي هوايتي، الموت.. هذا هو مصيري!

الوقت ضيق، وعقارب الساعة تتسارع في سعادة وكأنها فَرِحة بمصيري الذي سألاقيه بعد قليل، لكنني لن أموت بسهولة، سأكون شوكة في حلقهم، سأكشف أسرارهم، يجب أن يعلم العالم كُله بالأمر، يجب أن تعلموا بالأمر، لعل وعسى.. يستطيع أحدكم إنقاذ الموقف

أنا الآن أختبئ في بيت مهجور في إحدى القرى النائية في الريف، هذا هو المكان الوحيد الذي وجدته، أعلم جيدًا أنهم سيجدونني، سيتتبعون خُطاي.. سيقتفون أثري.. سيشمون رائحتي، لا أعلم كيف سيجدونني، لكنني واثِق تمام الثقة أنهم سيجدونني في النهاية

لا أخاف الموت، الموت شر لابد منه، ولو أنه في حالتي وفي مثل موقفي، الموت خير.. لكنني أعرف جيدًا أنني لن أناله، لكنني أخاف.. أخافهم، أخاف اللحظة التي سيجدونني فيها، أخاف أفعالهم.. أخاف رائحتهم.. أخاف تصرفاتهم

أنا أخشاهم..

أنا أستطرد! أنا آسف، لكن الخوف يتملكني، ورجفة غريبة تجعل قلبي ينتفض هلعًا داخل صدري، سامحوني واسمعوني.. فهي كلمات رجل ميت

أنظر إلى شاشة هاتفي، البطارية 5%، أتمنى أن تعينني على قص الأمر بأكمله عليكم، أخفض إضاءة الشاشة قليلًا علها توفر لي بعض الدقائق، أنظر نحو شريط الشبكة آملًا أن ألتقط القليل منها كي أتصل بأي شخص أو حتى ألج إلى شبكة الإنترنت بحثًا عن شخص ينقذني، سأكتب الأمر بأكمله على هاتفي، وألقيه هنا.. أتمنى أن يجده أحدكم، لو سقط الهاتف في أيديهم فالأمر مُنتهى، ستكملون حياتكم وأنتم تجهلون تمامًا ما يحدث حولكم، الأمل ضعيف.. لكن الأمر يستحق

وكما أخبرتكم من قبل.. لن أكون لقمة سائغة لهم

دعوني أقص عليكم الأمر منذ البداية

***

بدأ الأمر بداية عادية للغاية، هناك جريمة قتل، وهناك مُحقِّق متشوِّق لجرائم القتل وعَطِش لحلها، مُعادلة حسابية بسيطة للغاية، واحد زائد واحد يساوي إثنين، ولهذا كُنت أنطلِق في سيارتي الشخصية نحو مسرح الجريمة قبل مرور ساعة على اكتشاف الأمر، وبالطبع لم يكُن الأمر بهذه السهولة أبدًا، كان علىّ أن أستغل أنني ابن اللواء مجدي الغمراوي، وإلا سأظل في مكتبي أتابع بعض الأعمال الإدارية الروتينية المُمِلة، فتحت النافذة قليلًا وأنا أنطلق بسُرعة عالية نسبيًا، الهواء البارد يدخُل من النافذة مُتسارعًا ليلطُم وجهي، أبتسم مزهوًا بنفسي، لا مانع من قليلٍ من النرجسية، أنا نقيب شُرطة وأهوى التحقيقات وحل القضايا والألغاز، شاركت في ثلاثون قضية، وصلت إلى حلهم جميعًا، الأمر من وجهة نظري بسيط للغاية، السر في التفاصيل، يجب أن تُدقِّق في التفاصيل وستجدها تنصاع إليك واحدة تلو الأخرى لتقودك لما تبتغي وتطلُب

بدأت أراجع تفاصيل القضية في رأسي سريعًا، أعلم يقينًا أنني سأصل للحل، لكن لا مانع من بعض التفكير كي أشحذ خلايا مُخي وأدفع تروس تفكيري للعمل،

هناك قتيل.. رجل غريب الأطوار يعيش في غرفة فندق صغير في قرية نائية على حدود البلدة، الفندق يحتوي على نزيلين بخلافه، وهناك صاحب الفندق الذي يديره بنفسه، أقرب مكان للفندق يبعد عنه بحوالي ثلاث كيلومترات، يبدو أن المكان خُلِق لقاصدي العُزلة ومُحبي الوحدة، ولأصدقكم القول.. الأمر غريب مُريب

ثلاث مُشتبه بهم.. جُثة واحدة.. وقضية تنتظر حلا

وأنا لها

***

وصلت إلى الفندق الذي يختبئ خجلًا خلف أشجار كثيفة، يتوارى عن أعين الفضوليين بحوائطه البيضاء وطوله الشاهق، كبير هذا المبنى بحق، أكبر من أن يكون فندق في قرية نائية، يزداد الأمر غرابة حين أهبط من سيارتي، لفتت عدة تفاصيل نظري، وأول هذه التفاصيل كان الهدوء، الهدوء التام الذي لا يجد ما يخدش حياء سكوته، لا حشرات، لا حيوانات، لا شيء على الإطلاق، حين تلاحظ هذا الصمت، سيكون من الصعب تمامًا أن تفكِّر في أي شيء آخر، وصلت قبل رجال الشُرطة، هل وصلت مبكرًا؟ أم تراهم - كعادتهم - سيحضرون متأخرين؟

رأيت رجلًا يطل برأسه من خلف جذع شجرة في مُنتصَف الحديقة، يبدو أنه البُستاني، كُنت على وشك أن أذهب لأحادثه لكنني وجدت نفسي أمام الباب، طرقته ببطء، فتح لي رجل أشيب الباب، بشرته بيضاء تميل للون الوردي، شعره أشعث ولحيته بيضاء خفيفة، يرتدي نظارة طبية ويتركها تستند على طرف أنفه الطويل، يطالعني من فوقها بعينين زرقاوتين مليئتين بالفضول، أبتسم وأنا أخبره بهويتي، يبتسم ابتسامة لم تدُم للحظات قليلة قبل أن يفتح الباب سامحًا لي بالدخول

بالداخل وجدت كهلًا آخرًا، ورجلًا تجاوز الشباب لكنه لم يصل بعد للكهولة، الكهل كان يرتدي قميصًا وبنطالًا من لونٍ واحد، منحني الظهر قليلًا، يتحرك مُستندًا إلى عكاز، تبدو عليه إمارات الثراء الفاحش، يُدخِّن غليونًا ذو نقوش مُميزة، أما الرجل الثالث فتبدو عليه علامات الصحة، قوي الجسد عريضه، شعره خفيف يميل للصلع، ذو وجه مُتجهِم ويبدو أنه يشعر بالغضب طوال الوقت

عرفهم الرجل الذي فتح لي الباب، قبل أن يبدأوا بتعريف أنفسهم واحدًا تلو الآخر

الذي فتح الباب هو السيد صالح صلاح.. مُدير الفُندق ويقيم هنا طوال عُمره، ثري لا يحتاج للمال، لكنه يشعر بالوحدة لهذا قرَّر أن يحول قصره إلى فندق كي يحظى بصُحبة النزلاء

الرجل الثري ذو العكاز، هو السيد شامل العنتبلي، ساقته الأقدار إلى هنا في ليلة عاصفة تعطلت فيها سيارته منذ ثلاثون عامًا، لم يكُن يملك أي نقود، لكن السيد صالح استضافه ووفَّر له سكنًا وطعامًا، رجل شامل قبل أن يأتيه في اليوم التالي بنقود تزيد عن حاجته، من يومها وهم أصدقاء ويقضون أغلب أوقاتهم سويًا هنا

أما المُتجهِم الغاضب، السيد إبراهيم قاسم، رجل غاضب من قرية مجاورة، دائم الشجار مع زوجته، وهي سيدة قوية تطرده من المنزل، لا يجد مأوى سوي نزل السيد صالح يلجأ إليه

أما القتيل فهو رجل غامض، دخل إلى الفندق باسم سامح عتمان، لا يحمل أوراق هوية، ورغم عدم قانونية الأمر إلا أن السيد صالح سمح له بالحصول على غرفة بدافع طيبة القلب، قبل قليل.. بدأت الإضاءة في الارتعاد، أخذت المصابيح تنير وتنطفئ مرارًا وتكرارًا قبل أن تتحطَّم بعضها، اهتزَّت الأشجار بالخارج بسبب

رياح عاتية قوية كادت تقلعها من جذورها، أبواب الغرف كانت تُفتَح وتُغلق دون أن يقترب منها أي شخص، هبط إبراهيم من غُرفته وهو يشعر بالخوف الشديد، بينما كان شامل وصالح يجلسان في البهو يحتسيان كوبين من الكاكاو الدافئ، ويتبادلان أطراف الحديث، قال أنه سمع صوتًا أجشًا يصرخ في الغريب بلغة غريبة لم يفهمها، لكن قلبه كاد ينخلِع من مكانه من شدة الخوف، اقترب من باب غُرفة الغريب مُتسلحًا بفضوله باحثًا عن المعرفة، كان المصباح الموجود فوق الغرفة قد انفجر منذ قليل، والظلام يُسيطر على الممر بأكمله، الصوت الغاضب يصرخ في الغريب، يرتجف الباب بقوة وهو يكاد يسقط أرضًا، الغريب يهمس بصوتٍ خافت، يقول شيء عن قربان ودماء بشرية وكتاب من جلد، لكن الصوت يقاطعه في غضب عارم، يرتعد الباب وكأن عاصفة تختبئ خلفه، تقدَّم خطوة للأمام لكنه شعر بأنه يخطو في سائل، تراجع للخلف سريعًا وهو ينظر نحو الأرض، إلى بركة الدماء التي كانت تزيد وتنتشر في بطء من تحت الباب الذي هدأ تمامًا قبل أن يسود الصمت

ابتسمت وأنا أتنفَّس ببطء مُتسائلًا: " ألا تجدون الأمر غريبًا؟"

نظروا لبعضهم البعض في حيرة قبل أن يسألني السيد شامل: " أي أمر؟"

نظرت لهم مرة أخرى قبل أن أقول: " لم يتصل أي شخص منكم ليقوم بإبلاغ الشُرطة، البلاغ جاء من فتى يأتي لهذه المنطقة النائية كي يشرب سجائره دون أن يعرف أباه، هو من سمع الصرخات والصوت المُخيف، وقام بالإبلاغ عن جريمة قتل، لكن أنتم.. الذين اكتشفتم الجريمة لم تقوموا بالإبلاغ، ألا تجدون الأمر غريبًا؟"

تبادلوا النظرات مرة أخرى، لكن هذه المرة تحوَّلت الحيرة إلى خوف، قال صالح بتلعثُم: " لا.. في الحقيقة.. في الحقيقة.."

ابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يستكمِّل حديثه المُرتبِك: " في الحقيقة عرفنا أن هناك من قام بإبلاغكم، ورأينا ألا نزعجكم"

اتسعت ابتسامتي وأنا أقول: " حجة جيدة، لكنها صعبة التصديق بعض الشيء"

قال إبراهيم بغضب: " ماذا تقصد؟"

" لا أقصد شيئًا، هل فتح أحدكم الباب أو رأي الجُثة؟"

تبادلوا النظر قبل أن يقول صالح بقلق: " لا.. منذ حدث الأمر ونحن هنا"

" هل لي أن أصعد لأفحص الأمر بنفسي؟"

قال السيد شامل بثبات: " أليس من الأفضل أن تنتظر زملائك؟"

ابتسمت وأنا أقول: " هذا عملي يا سيد شامل، ومع احترامي الشديد لحضرتك، أتمنى ألا يخبرني أحد كيف أقوم بعملي"

" لم أقصد.. كُنت فقط.."

تركته وصعدت للأعلى بخطواتٍ سريعة، صعدت السلم في قفزات صغيرة، ووجدت نفسي في الممر المُظلِم، بحثت عن زر الإضاءة في ضوء القمر الخافت الذي يتسلَّل من بين الأشجار ويقتحِم النافذة، وجدته وضغطت عليه.. لا شيء، حسنًا لم يكذبوا حين أخبروني أن المصابيح مُعطلة بسبب ما حدث، سيتعيَّن عليّ أن أستخدم كشَّاف هاتفي المحمول، أخرجته من جيبي وأخذت أسير في بطء، أسمع شظايا زجاج المصابيح المُهشمة وهي تتحطَّم تحت قدمي، ميَّزت غرفة الغريب فورًا بسبب بركة الدماء التي تظهر أمام بابها الذي يكاد يتحطَّم، أخرجت منديلي القماشي ووضعته على مقبض الباب وأنا أخطو وسط الدماء ببطء، أدرت المقبض فأستجاب صاغرًا وفُتِح الباب، نظرت داخل الغرفة، الدماء تملأ المكان بوحشية، لوحة سريالية مرسومة بدمٍ تشي بأمر وحشي حدث ها هنا، حركت الكشَّاف حول الغرفة أتأمَّلها، الدماء تملأ المكان.. السقف.. الحوائط.. الفراش.. وحتى الحمَّام الصغير مُلطخ بالدماء، لكن هناك بعض التفاصيل التي ظنوا أنني لن أراها، هناك

من حاول إخفاء آثار أمر حدث هنا، شعرت بحركة خافتة من خلفي، أخرجت مُسدسي سريعًا وأنا أصوبه تجاه مصدر الصوت

سمعت شهقة عالية قبل أن يقول السيد صالح: " حنانيك أيها الضابط.. ساقنا الفضول"

وضعت سلاحي جانبًا وأنا أقول: " حسنًا.. أولًا: لا تتسللوا في الظلام بهذه الطريقة مرة أخرى، ثانيًا: كُنت على وشك استدعائكم إلى هنا، فهناك شيء لا أفهمه"

نظرت إلى الغرفة قبل أن أقول: " هناك من دخل هذه الغرفة، وهو واحد منكم.. لذا فالقاتل واحد منكم، ولديّ خبر سعيد.. سأعرفه قبل وصول الدعم إلى هنا"

سألني إبراهيم بغضب: " ماذا تقصد؟ نحن لا نكذب!"

" أحدكم يكذب، هل تريد أن تعرف لماذا؟"

سألوا جميعًا في صوتٍ واحدٍ: " لماذا؟"

تنفست ببطء وأنا أبدأ حديثي: " كما ترون فإن الدماء تلطِّخ كُل الحوائط، بمرور الوقت بدأ لون الدماء يتغيَّر، كُل الدماء كما ترون بدأت تتحوَّل للون الأحمر الغامق، إلا هذه المنطقة.. هنا تحديدًا في مُنتصف أرضيةِ الغُرفة، ما زال اللون فيها أحمر قاني، وهذا دليل على أن تلك الدماء وُضعت بعد باقي الدماء بوقتٍ كافٍ، وسيُثبت رجال الطب الشرعي صحة حديثي، أما لو اقتربت هنا، في مُنتصف الغُرفة تمامًا سترى شيئًا غريبًا، بقايا شمع أسود اللون، لم يتسنى للشخص الذي قام بإزالته أن يقوم بعمله على أكمل وجه، فتراه ترك هنا بعض القطع الصغيرة للغاية التي لن تراها سوى بكثير من التركيز، ها هي، هل ترونها؟ وبالتأكيد لو أن الغُرفة تتمتَّع بإضاءة قوية سأجد الكثير من الأشياء التي تُثبت النظرية التي كونتها، هل تريدون أن تعرفوا إلام توصلت؟"

نظروا إلى بعضهم البعض للحظة قبل أن ينظروا إليّ والفضول يمتزج بالقلق في أعينهم، بدأت حديثي مرة أخرى: " هناك طقس سحري كان يتم في هذا المكان، على الأرجح سحر أسود، وسأجد آثارًا للأمر لو وفرتم لي إضاءة جيدة، أحدهم كان يقوم بهذا الطقس، واستخدم هذا الغريب كقربان بشري، أعتقد انه كان يريد فتح بوابة من العالم الآخر ليسمح لشيء ما بالقدوم إلى هنا"

صمتت قليلًا قبل أن تتسع ابتسامتي وأنا أقول: " لكن من سوء حظ الجاني أنني عرفته، هل تريدون أن تعرفوا من الجاني؟"

نظروا إلى بعضهم البعض، رأيت الجاني وعلامات الفزع نظره على وجهه، كان يعرف جيدًا أن سره انكشف، بصوتٍ مليء بالثقة والصرامة أشرت نحوه وقُلت: " أنت.. أنت الجاني"

نظرا إلى إبراهيم الذي ظهرت عليه علامات الارتباك وهو يتلفَّت حوله ويبتلع ريقه بصعوبة، أكملت حديثي: " أنت الجاني، تقول أنك متزوِّج من امرأة قوية تطردك من البيت دومًا، وأن أقول أن هذه ذريعة ابتكرتها كي تبرِّر وجودك الدائم هنا، ارفع يدك اليُسرى من فضلك"

رفع يده اليُسرى التي ترتعد، أشرت إلى بنصره الذي يخلو من أي دبلة أو خاتم وأنا أقول: " أين دبلتكَ؟"

بصوتٍ مُرتعش بدأ يُدافِع عن نفسه قائلًا: " لا أرتديها لأنني.. لأنني غير سعيد في زواجي"

" أنت لم ترتدي خاتم زواج يومًا، لا توجد أي علامات على بنصرك، أنت كاذب يا صديقي، صحيح أنك ذكي.. لكنك لست أذكى مني"

توقعت أن ينهار ويعترف بجريمته وهو مُنبهِر بهذا النقيب خارق الذكاء حاد المُلاحظة الذي كشف سره واكتشف جريمته مثلما يحدث في العادة، لكنه بدأ

يضحك بسُخرية، كانت صوت ضحكاته يزداد بطريقة غير طبيعية، أغلق عينيه وألقى برأسه للخلف وهو يضحك، صوت ضحكاته كان مُرتفِع لدرجة أنني وضعت يديّ على أذنيّ بألم، لكن الضحك توقَّف فجأة مثلما بدأ فجأة، فتح عينيه الحمراوتين، رباه.. شكله مُخيف للغاية، بصوتٍ صدئ آتٍ من الجحيم بدأ يتحدَّث: " أنت ذكي.. لكنك لست أذكى منا، بالفعل كان هناك طقس سحري هنا، وبالفعل هو طقس سحر أسود، وحاولنا بالفعل أن نخفي آثاره بسبب الوغد الفضولي الذي سمعنا وقام بإبلاغ الشُرطة، لكنك فوَّت بعض الأمور الصغيرة، وأعتقد أن من حقك أن تفهم قبل أن ترحل"

أرحل؟ ماذا يقصد؟ لكنه لم يسمح لي بالسؤال، أكمَل حديثه

" لم أقم بالطقس السحري بمُفردي، كُلنا اشتركنا فيه"

نظرت لهم بخوف ولاحظت تغيرًا في وجوههم، أعينهم التي ظهرت حقيقتها، أضحت مشقوقة بالطول الآن، تلمع وسط الظلام بلونٍ أحمرٍ مُخيفٍ، وجوههم التي تلوَّت غضبًا لتظهر شرًا كانوا يضمرونه ويخفونه في قلوبهم، وأسنانهم الصفراء الحادة ذات الرائحة الكريهة، كُنت أسمع صوته الصدئ القادم من الجحيم وكأنه يأتيني من مسافة بعيدة، رغم أنه يقف بجواري: " ألم تلاحظ علامات الإطارات بالخارج يا قوي الملاحظة؟ لقد أتيت متأخرًا، لم يصمدوا أمامنا لحظات.. والسيارات تختفي وسط الأشجار الكثيفة، تركناك تمرح لأنني نشعر بالسأم، لكنك مُمل وطريقتك الاستعراضية سخيفة للغاية، تبدو مزهوًا بذكائك للغاية، لذا قررنا أن نتركك كي نسخر منك قليلًا، لكنك أصبت في أننا كُنا نحاول أن نفتح بوابة من بوابات العالم الآخر، لكنك لا تعرف لماذا نفعل هذا، نحن الثلاثة مُجرَّد مُستكشفين.. أتينا إلى عالمكم من أجل أن ندرسكم.. قررنا أن نحتل عالمكم.. أنت كائنات ضعيفة لا تستحق الحياة، سحقنا قوة كاملة من قوات الشُرطة خلال دقائق قليلة، في الواقع سأستدعيهم إلى هنا، نسيت أن أخبرك.. لقد استحوذنا عليهم"

بدأت أسمع صوت الخطوات الآلية البطيئة وهي تتحرّك في الحديقة نحو باب الفندق، الذي على ما يبدو أنهم تركوه مفتوحًا، خلال دقائق قليلة سيكونون هنا، يتحركون ببطء مُخيف

" انتهت مهمتنا هنا، وسنحضر بقية قواتنا كي نسيطر على أرضكم، خُلقتكم لتعبدونا ولتلبوا رغباتنا، نحن الأقوى.. زئر بقوة وهو يتحرّك بسُرعة نحوي، أمسك بعنقي بقوة، غرس مخالبه في رقبتي وهو يرفعني في الهواء بقوة قائلًا: " اركع لي أيها العبد الفاني.. لو أردت الحياة، أنا إلهك، سيدك، وربك"

هززت رأسي وأنا أقول بصوتٍ مُختنِق: " حسنًا، حسنًا، سأركع"

تركني فسقطت أرضًا، سعلت بقوة وأنا أحاول التنفُّس، ابتسمت بسُخرية وأنا أقول: " سأركع لكن لله وحده عز وجل"

كُنت أسمع صوت الخطوات الآلية البطيئة وقد اقتربت من الغرفة، الحديقة بالأسفل هادئة تمامًا، وهذا يعني أنني يجب أن أتحرّك سريعًا، أغلقت كشّاف هاتفي وأنا أتحرّك سريعًا مُستغلًا عامل المفاجأة، قفزت نحو الشباك المُغلق، هشمته بجسدي وسقطت في الحديقة، آلمني كاحلي لكنني لا أملك رفاهية التألُّم، عدوت كالمجنون وأنا أقفز من فوق سور حديقة الفندق وعدوت حتى اعترض كاحلي ورفض الاستمرار، فكان لزامًا عليّ أن أختبئ في هذا البيت المهجور

لكنهم يشمون رائحتي، أردت أن أحذركم، الكيانات الشيطانية قادمة لاحتلال عالمنا، عليكم أن تجدوا حلًا قبل فوات الأوان، أسمع صوت خطواتهم وهم يقتربون مني، لن يقبضوا عليّ، إذا أتت النهاية ولا بد منها، فلأرسم نهايتي بنفسي

رأيت الأعين الحمراء تلتمع في الظلام وهم يقتربون في خطواتٍ بطيئةٍ، أخرجت مُسدسي، تلوت الشهادة، ووضعته في فمي وضغطت الزناد

(8)

حقَّق الكابوس الثاني المُسمَى حاليًا في مكتبتنا الخاصة بالأحلام بـ (كابوس المُحقِّق) مبيعات لم نكُن نحلَم بها، كما أنه زاد من مبيعات (كابوس الغُميضة) بشكلٍ واضح، يبدو أن الكوابيس ستُحافِظ على وجودها وتصدرها لقائمة الأكثر مبيعًا لجولةٍ أخرى

وصلني هذا الكابوس مع شيء آخر لا يرتقي لكونه كابوس، لكنه مٌقبِض ومُفزِع، لذلك احتفظت به قليلًا على أمل أن أنجَح في استغلاله فيما بعد في حالة لم يصلني أو لم أتحصَّل على كوابيس جُدد

لكن إيرادات تأجير الكابوس الجديد فاقت توقعاتنا، وزادت من حديث الناس على الإنترنت عن الأمر بشكلٍ لم نكُن نتخيَّله، يكتبون منشورات عن الكابوس على شبكة الفيس بوك، يغردون عنه على تويتر، ويضعون صور مُشابهة لأحداثه في الإنستجرام

كان الأمر ناجحًا بشكلٍ مُبهِر، لدرجة أنه لعدة أيام مُتتالية لم يستأجِر أي عميل من المتجرين سوى (كابوس المُحقِّق)، واللطيف في الأمر أن الكابوس وصل في الوقت المُناسِب قبل أن يمل الناس (كابوس الغُميضة) أو يهجروا الأمر خصوصًا أن نسبة إيجار بقية الأحلام لم تتعدى الـ 1% وهي نسبة مُحبطة للغاية، لكن هذا الكابوس حَرَّك المياه الراكدة مرة أخرى

لكنني لاحظت أمرًا غريبًا، في أحد المُنتديات الشهيرة كتب أحدهم عن بيضة عيد الفصح أو الـ **Easter Egg** الموجودة داخل الكابوس، يطلقون هذا المُصطلح عادةً على شيء مخفي بعناية في أحد الأفلام أو في واحدة من الروايات، سواء كان نصًا، صورةً، شخصًا أو مشهد كامل، لكن هذا الشيء يجب أن يكون مخفي بعناية وألا يكون واضحًا للعيان بشكلٍ واضحٍ مُستفِز

يتحدثون عن الرجل الذي ينظر لهم قبل أن يدخلوا إلى الفُندق، الرجل الملثم الذي يظهر الحُزن على ملامحه وهو يطالعهم من خلف جذع شجرة، ما هو دوره في الحلم؟ لا شيء! إذا لماذا ظهر بهذا الشكل الواضح الذي لا يُمكِن تجاهله؟

تعدَّدت الأقاويل وتباينت الآراء، منهم من قال أن هذا الرجل سيكون له دور في بعض الكوابيس التالية، وآخرون قالوا أن هذا الرجل تمهيد لجُزءٍ ثانٍ من هذا الكابوس أما قلة قليلة منهم فقالوا أنه خطأ غير مقصود في أحداث الكابوس لكن الآخرين سخروا منهم ولم يعتدوا بكلامهم فالتزموا صمتهم وذهبوا إلى ركنٍ بعيدٍ في المُنتدى ليناقشوا الأمر بعيدًا عنهم في موضوع آخر خاص بهم

لكنني كُنت على يقين أنها تفصيلة غير هامة في هذا الكابوس، وأن بعض المُتحمسين للأمر كالعادة يهولون أي تفصيلة صغيرة من أجل أن يثبتوا أنهم كانوا مُحقين حين تحمسوا له منذ البداية

ابتسمت بسُخرية وأنا أرى حماس البعض للأمر يفوق حماسنا نحن شخصيًا

أنهيت عملي اليوم وأشعر ببعض الملل، لذا قرَّرت أن أشاهد نصف الكابوس أو ضغث الحلم كما يحلو لي أن أطلِق عليه، وضعت الجهاز على رأسي وضغطت زر التشغيل وأنا أسترخي في فراشي الوثير

(9)

اقترب مني ببطء، أسمع آنات ألم لا أعلم مصدرها، لكنها تُثير خوفي وتزيد من القشعريرة التي تسري في جسدي العاري، أرفع رأسي بصعوبة مُتحديًا ضعفي وإرهاقي، أتأمَّل السلاسل الحديدة المُعلقة الصدِئة التي تُمسِك بيدي بعُنف لتمنعني من مُغادرة مكاني، أهزها بما تبقى من طاقة داخل جسدي المسكين، لكنها تُصلصِل دون أن تُبدي رغبة في تحريري، أنظر للأسفل، نحو الدلو المقلوب الذي أقف عليه بصعوبة محاولًا حفظ توازني، الأمر الذي كان صعبًا بسبب الدماء والبول المُتساقطين على قدمي ليجعلا الأمر زلقًا، غفلت قليلًا منذ عدة أيام فزُلَّت قدمي لأفقد توازني وأسقط عن الدلو، وجدت نفسي مُعلقًا في الهواء وثِقَل جسدي بأكمله كان يُرسِل جيوشًا من الألم لتهتك عرض كتفي ومفاصلي، وبصعوبة بالغة بعدة صرخات عديدة مليئة بالألم واليس نجحت في استعادة توازني والوقوف فوق الدلو مرة أخرى، وهي تجربة - لأكون صادقًا - لا أريد أن أعيشها مرة أخرى

أشعر بالرعدة التي تغتصب قدمي، الألم لا يُحتمَل، أحاول أن أشتِّت ذهني عنه فأتذكَّر بعض الأحداث القديمة، أعمَل في وردية ليل في أحد محلات الطعام الشهيرة، متجر يحمل علامة تجارية مصرية لمطعم يُقدِّم دجاج مقلي مُقرمَش في محاولة بائسة لتقليد مطعم عالمي آخر يمتاز بسر خلطته الشهيرة، الفرع الذي أعمَل به كان في منطقة نائية، أغلقنا المطعم ورحل الجميع وتركوني وحيدًا، كان هذا أمرًا طبيعيًا، كوننا نمتلِك جدول للنظافة، واليوم يومي

كُنت أكنس الأرض وأنظف المكان، أحمل بقايا الطعام عن بعض المناضد وأطهرها بسائلٍ هو نفسه يحتاج للتطهير، أمسح الأرضية بماء وصابون يتظاهر بقدرته الجيدة على تنظيف الأرضيات، كانت إضاءة المطعم تعمل بنصف طاقتها فقط، الصمت يُسيطر على المكان إلا من صوت تحركي الدؤوب في أرجاء المطعم، سمعت صوت الأجراس الصغيرة التي اصطدمت ببعضها البعض في ارتباك لتُخبرني أن هناك من فتح باب المطعم

موليًا ظهري للقادم ومُنهمِك في التنظيف كُنت، أخبرته بلهجة رسمية أن مواقيت العمل الرسمية قد انتهت وأن عليه أن يعود صباحًا، وأخبرته بمواقيت العمل كي لا يُكرِّر خطئه، سمعت صوت خطواته من خلفي وهو يقترِب مني أكثر رغم أنني أخبرته أننا لا نعمَل، صحت به مرة أخرى وأنا مُنهمِك في رفع بعض الكراسي من أجل التنظيف تحتها، لكنه استمرّ في الاقتراب ببطء، اضطررت للالتفات كي أواجه هذا الزائر المُزعِج بالأمر، يبدو أنه بطيء الفهم، أو لص غبي لأنه لن يجد ما يسرقه هنا

التفتت لكنني بمُجرَّد أن رأيته شهقت وأنا أتراجع للخلف في سُرعة، تعثرت قدمي في أحد المقاعد لأسقط على مؤخرتي، زحفت للخلف في سُرعة وأنا أبسمِل وأحوقِل في خوف، فأمام عيني كان يقف آخر شيء توقعت رؤيته في تلك الليلة المشؤومة

أمام عيني كان يقف رجل، لكنه وبكُل تأكيد لم يكُن رجلًا عاديًا، كان رجلًا برأس خنزير قبيح

خنزير يرتدي الزي الشهير الذي يرتديه العُمال القائمين على تصليح السيارات أو ما يُسمى بالـ (عفريتة)، كان زيه أزرق اللون مليئًا ببُقع الشحم التي تتداخَل مع بُقع أخرى من سائل غامق اللون عرفت ماهيته فيما بعد

حاصرني في ركن المحل وهو يقبُع بصوتٍ عالٍ، مد يده الآدمية ببطء في جيبه الخلفي وهو يُخرِج مفتاح إنجليزي صلب ويرفعه عاليًا، قبع مرة أخيرة بوحشية وهو يضربني بالمفتاح في رأسي

فقدت وعيي من فوري، ربما من شدة الضربة وربما من شدة الخوف، لا أدري، لكنني كُنت أستعيد وعيي في بعض الأحيان، لمُدة لا تتعدى الثوانِ، أفقت عدة مرات، مرة لأجِد نفسي في شاحنة قديمة ذات صوتٍ مُزعِج وهي تتحرّك في سُرعة، لكنني فقدت الوعي مرة أخرى وأفقت لأجده يجرني من قدم واحدة على أرض تُرابية لكن رأسي اصطدم بصخرة صغيرة ففقدت وعيي مرة أخرى، في المرة الثالثة والأخيرة أفقت لأجد نفسي مُقيَّد بهذه الطريقة، يديّ مرفوعتين للأعلى ومُقيدتين في سلسلة حديدة صدئة بينما أقف مُستندًا على دلو مقلوب

صرخت حتى كادت رئتي تنفجِر، لكن لم يُجبني أحد، بكيت كثيرًا وأنا أتوسَّل إليه أن يُطلِق سراحي، لكن دون فائدة، قرَّرت أن أبدأ في جولة جديدة من الصراخ، لكن بعد دقائق قليلة سمعت صوتًا خافتًا من خلفي يُخبرني بوهنٍ وضعفٍ وكلمات تتخبَّط بين الواقع والهلاوس أنه لا فائدة من الصراخ، وأنه حاول كثيرًا دون جدوى

حاولت أن أنظر إليه لكن قيدي منعني، أتاني صوته المُرتعِد ليخبرني ألا أحاول، فربما كان من حُسن حظي أنني لا أبصر هيئته وإلا زاد هلعي أضعافًا مَضاعفة

أخبرني أنه هنا منذ أيام طويلة، محبوس في زنزانة بدائية مُكهربة القضبان، مساحتها صغيرة لا تكفيه للرقود أو للنوم، لا يستطيع النوم لأنه يحتاج أن يرتكِن على قضبانها التي تسري بها كهرباء تكفي لإنارة مدينة صغيرة وأنه كُل ليلة يتعرض لهجوم وحشي من قِبَل كلبٍ مُفترِس يكاد يفتك به يوميًا لولا أن الرجل ذو رأس الخنزير يتدخَّل في اللحظات الأخيرة، وأن هذا الرجل الذي يُطلِق على نفسه اسم (المُتعهِّد) يسمح له بالنوم في بعض الأحيان على مرتبة مُريحة بشرط أن يرتدي

جهازًا لا يعرف كنهه، لكنه يُرحِب بالنوم تحت أي ظروف وفي أي وقت لهذا لا يُمانِع

أخبرني كذلك أن هناك آخرون، أتوا من قبله، حوالي أربعة أفراد، لا يعرف أسمائهم لكنهم يطلقون على بعض أرقام بناءً على الترتيب الذي حضروا به إلى هنا، بهذه الطريقة أكون أنا صاحب الرقم (خمسة) وذو الصوت المُرتعِد هو الرقم (أربعة)

كُل منهم لا يرى السابقين لكنه يشعر بهم، هذا لأننا دائمًا ما نُحتجَز أمام بعضنا البعض، مثلما أسمع صاحب الرقم (أربعة) من خلفي، فهو يسمع صاحب الرقم (ثلاثة) من خلفه وهكذا..

عرفت منه أيضًا أن صاحب الرقم (واحد) يُعذَّب بالنار

وصاحب الرقم (إثنين) يُعذَّب بالماء

صاحب الرقم (ثلاثة) يُعذَّب بالبرد القارص والثلوج

أما هو.. صاحب الرقم (أربعة) فيُعذَّب بالكهرباء

وأنا منذ أتيت إلى هنا لم أتعذَّب وكأنه يترك اليأس ينخُر قلبي أولًا قبل أن يبدأ، والحقيقة أن الأمر ناجح حتى الآن، لأنني بعد أن سمعت حديث صاحب الرقم (أربعة) زاد هلعي وتملَّك الخوف من قلبي وسكَّنه بأكمله

تمنيت لو أموت قبل أن يأتي دوري، الكلب كان العامل المُشترك بين الجميع، وفي الحقيقة رغم كم الرعب الذي يتعرضون له وهم ينتظرونه أن يفترسهم أو ينهش لحومهم، لكنهم ينتظرون دورهم أمام الكلب، لأن هذا يعني وبكُل بساطة أن الخطوة التالية ستكون النوم فوق المرتبة المُريحة لليلة خالية من العذاب مُقابل ارتداء الجهاز

ويبدو أنه كان ينتظر هذه الليلة تحديدًا، الليلة التي سأعرِف بها بما سينتظرني، الليلة التي سيرتجِف قلبي فيها مع كُل صوتٍ ومع كُل حركة، الليلة التي سينتفِض قلبي فيها لينخلِع من مكانه وأنا أراه يهبط السلم الخشبي ببطء، وكأن السلم الخشبي هو الآخر يشعُر بهلعي ويصُر على مُساعدة صاحبه فيُصدِر صوت صرير مُزعِج مع كُل سلمة يهبطها صاحب رأس الخنزير، يُمسِك بيده علبة معدنية تُشبه العلبة التي يحتفظ فيها العُمال بأدواتهم، يقبع في وحشية وهو يقترب ليُثير فزعي وخوفي، ولكي أكُنْ صادقًا.. فهو ينجح في الأمر

يقف أمامي وهو يتأمل ملامحي من خلف قناعه، يضع علبته المعدنية على الأرض بثقةٍ بالغةٍ وبطء كئيب، يتأملني مرة أخرى قبل أن يفتحها وينتقي منها مطرقة ضخمة، يتأملها ويتأملني قبل أن يُقرِّر أنها ليست الأداة المطلوبة، يعود للبحث داخل علبته وفي النهاية يجد ضالته، مجموعة من المسامير الحادة، يبتسِم بثقة وهو يقف أمامي، يمط شفتيه في عدم اقتناع، ويعود للبحث مرة أخرى إلى أن يجد منشارًا حادًا، ويبدو أن الأمر أعجبه لأنه قبع في فرح وهو يقف مرة أخرى

قرَّر أن يُعامل جسدي مُعاملة الشاورما، أخذ يقطع شرائح نحيفة من لحمي وهو غير عابئ بصراخي، يضحك كالمجنون، بهستيريا مُخيفة تُجمِّد الدم في العروق، وكأن ما يفعله شيء مُمتِع للغاية، صرخت وتألمت، بكيت وسببت، لكن بلا أي فائدة

كان مُستمرًا في تعذيبي لساعاتٍ طويلةٍ وهو يضحك كالمجنون، كدت أفقد وعيي أكثر من مرة لكنه كان خبيرًا فيما يفعل، يعرف ماذا يفعل ومتي يتوقَّف، يعرف مقدار الألم الذي سيُسببه قبل أن يشرع حتى بالأمر

انتهى من مُهمته، أمسك بقطعة قماش نظيفة أخرجها من جيب ملابسه التي اصطبغت بدمائي، شرع ينظف أدواته برفقٍ وكأنهم أطفال صغار، ويضعهم بترتيبٍ

مُعيَّن ونظام لا يتغيَّر في العلبة المعدنية، سار حتى السلم الخشبي لكنه توقَّف فجأة، خيط الدماء التي يهبط من الجرح الكبير الموجود فوق حاجبي يعيق رؤيتي قليلًا، لكنني على الأقل قادر على تمييز ما يحدُث، وضع العلبة المعدنية أرضًا وهو يصفع جبهته براحة يده وكأنه يتذكَّر شيئًا نساه، أمسك بعبوة بلاستيكية مليئة بسائلٍ لم أتبيَّن ماهيته وسار نحوي ببطء، وقف أمامي وهو مُستمِر في الضحك الهستيري، فتح غطاء العبوة وسكبها فوقي

وكأن بركانًا من الألم ثار في نفسي، وكأن أعاصير الوجع هاجت لتمحو سلامي النفسي بالكامل، صرخت كما لم أصرخ من قبل، بكيت كما لم أبكِ من قبل، وتوسلت إليه بكُل الذُل والمهانة التي عرفهم مخلوق في العالم بأسره

سكب على عبوة من الكحول، السائل الذي أثار جروحي وحرَّر ألمي وتركني مُهانًا لا أستطيع التوقُّف عن البُكاء، كان الألم أكبر من قدرتي على الاحتمال، من حُسن حظي أن عقلي أدرك الأمر سريعًا، أرسل إشارة واضحة لكُل خلايا جسدي أن كفى.. استسلموا.. كفوا عن المقاومة

ولنخر فاقدي الوعي ونسمح للظلام أن يُسيطر على كُل الموجودات

(10)

أنتظِر كابوسي الثالث

استيقظت بعد أن خُضت هذا الضغث المُرعِب القاسي نفسيًا وجسدي مليء بالعرق البارد، كُنت أرتعِد فزعًا وأنا أحمد الله أن هذا لم يكُن واقعي ولم يكُن عليّ أن أخُوض هذه التجربة في يومٍ من الأيام، تنفست الصُعداء وأنا أستنشِق الهواء النقي، خلعت خوذة جهاز العرض ووضعته جانبًا

سمعت هاتفي يرن منذ قليل، يبدو أنه هو الذي أنقذني، أمسكته وتفحصت الأمر، هناك رسالة جديدة، كابوسي الثالث جاهز وعليّ الذهاب لاستلامه

غيرت ملابسي وقُدت سيارتي نحو المكان المُتّفَق عليه، صففت السيارة أمام المنزل الضخم وهبطت منها مُتجهًا نحو بابه الأمامي، وجدت الباب مفتوحًا على غير العادة، دفعته بحرصٍ وأنا أخطو داخل المنزل، لم أكُن غريبًا عنه، لذا كان الأمر مُعتادًا

لكن هناك شيء خاطئ، لديّ هذا الشعور الذي يُثير الرجفة في القلوب ويُسري القشعريرة في الأجساد، لا أعرف تحديدًا ما الأمر، لكنني أعرف يقينًا أن هناك شيء خاطئ يحدث هنا

تلفتُّ حولي بحثًا عن أي بادرة خطر، لكن الأمور - حسبما أرى - على ما يُرام، إذا ما الأمر؟ ما سبب هذا الشعور المُقبِض؟ ولماذا يدُق قلبي بهذه السُرعة؟

استدرت بسُرعة وأنا أنظر خلفي، سمعت صوتًا يأتيني من هنا، صحيح أنه كان خافتًا لكنني كُنت مُنصتًا واستطعت سماعه بوضوح، صوت شخص يتألّم، هاجمتني ذكريات الضغث اللعين لكنني أنحيتها جانبًا الآن، تحركت ببطء نحو مصدر الصوت، الذي اختفى الآن تاركًا أفكاري تعبث بأماني وتصوِّر لي خيالات مُرعِبة، بحثت بعيني عن أي شيء يصلُح كمصدر للصوت الذي سمعته، لكن المكان خالي تمامًا، إلا من..

إلا من باب قبو خشبي ثقيل، هناك قفل مفتوح مُعلَّق بإهمال على الباب، اقتربت من الباب بخطواتٍ مُرتجِفة، وضعت أذنًا اتخذت من الإنصات غاية لها على الباب الخشبي، شعرت ببرودته لكنني تجاهلت الأمر، سمعته! سمعته مرة أخرى! هناك شخص يتألّم في هذا القبو، هل أنتظر هنا؟ أم أن عليّ أن أرى ما الأمر؟

بالطبع كانت معركة خاسرة، انتصر الفضول من فوره، لطالما حَسَم هذه المعارك بسهولةٍ بالغةٍ، بيدٍ مُرتعِدة أمسكت بالقفل وفتحت الباب، أتاني الصوت قويًا وكأنه كان ينتظِر هذه اللحظة تحديدًا، هبطت درجات السلم وأنا أتبَع الصوت في فضول ممزوج بالخوف، هناك من يتألّم بقوة، يصرخ صرخات شنيعة وهو يتوسّل لآخر أن يحل وثاقه أو على الأقل أن يتركه يستريح، لكن الآخر لا يستجيب، لا أسمع صوته، أهبط السلم بأقدام تنتعِل التردُّد وخطوات يملأها الشك

هبطت السلم ووقفت أراقبه، يرتدي عفريتة زرقاء اللون ملوثة ببعض الشحوم وكثير من بُقع الدماء، وعلى رأسه قناع لحيوان غريب لم أتبينه من الخلف، لكنني أعتقد أنه خنزير، مُنهمِك في تعذيب شخص ما يقف داخل زنزانة جديدة مساحتها لا تتعدى المتر الواحد، يوليني ظهره فلا يراني، لكن هناك شخص آخر رآني، اتسعت عيناه فزعًا وكأنه لا يُصدِّق ما يرى، ينظر في كُل مكانٍ كالمجنون ليتأكَّد أن أحدً غيره

لا يراني، يقف عاريًا فوق دلو مقلوب، ينزف من كُل مكان في جسده تقريبًا، يشير لي برأسه إشارات غريبة لا أفهمها لكنني أظن أنه يدعوني لفك أصفاده وتحريره

اقتربت منه في بطء، أتحرَّك بخطواتٍ بطيئة كيلا يسمعني، أستعيد ذكريات الضغث اللعين وقلبي يكاد يفضحني، يدُق بقوةٍ وسرعةٍ لم آلفها من قبل، أخشى أن يسمعني صاحب القناع ويعرف بوجودي بسبب ضربات قلبي المجنونة، رأيت منضدة خشبية صغيرة عليها بعض الأدوات، من وسطها انتقيت مطرقة حديدة ضخمة، وبدأت أتحرَّك نحوه ببطء

اقتربت منه ورفعت المطرقة عاليًا، نظر نحوي وفي عينيه رعب لا حدود له، لكنه لم يستطع أن يصرُخ، لم أمهله الوقت الكافي ليُفكِّر في الأمر حتى، نظر لي بصدمة لوهلة قبل أن يسقط جسده من فوق الدلو وقد فقد وعيه

نظر ذو القناع خلفه بسُرعة ليراني، تأملني لوهلة قبل أن يقترب مني ببطء، كاد قلبي ينخلع من مكانه وهو يقترب بخطواته البطيئة وغموضه المُخيف، وضع يده على كتفي وهو يشير لي دون كلام نحو السلم، فهمت مُبتغاه، تركته وصعدت السلم وأنا أبلع ريقي بصعوبة، توجهت للأعلى وتركته بالأسفل يُنهي ما بدأه

لم يتأخَّر عليّ، بعد دقائق سمعت صرخة شنيعة آتية من جحيم ألم لا يُطاق، وسمعت صوت خطواته الثقيلة وهو يصعد سلم القبو، أغلق الباب الخشبي ووضع القفل في مكانه قبل أن يُغلقه جيدًا، نظر لي قليلًا، خلع قناع الخنزير المُخيف ووضعه جانبًا وهو يُمسِك بمنديل قماشي أخرجه من أحد الأدراج وهو يجفِّف عرقه، نظر إليّ بتمعُّن وهو يسألني: " لماذا هبطت إلى القبو هذه المرة؟ ألم تقُل من قبل أنك لا تتحمَّل منظر الدماء وصوت التأوهات؟"

رفعت كتفي وأنا أمط شفتيّ في لا مُبالاة وأنا أقول مُتفحصًا القناع: " شعرت بالملل، ورأيت الباب مفتوح، ففكرت.. ما المانع؟"

ابتسم ابتسامة خفيفة لم تدُم للحظات قبل أن يقول: " أتمنى أن يكون قد أعجبك ما رأيته"

مططت شفتي بامتعاض وأنا أقول: " لم تكُن ولن تكون أبدًا السادية ضمن قائمة اهتماماتي أو تطلُعاتي"

مشط شاربه الذي يزيد من هيبته وهو يرفع أحد حاجبيه في دهشة قائلًا: " أتعجب من قدرة بعض الناس على الحياة دون أدرينالين"

ابتسمت وأنا أقول: " عذرًا أيها المُتعهِّد.. فنحن مجانين بعض الشيء"

ضحك وهو يتجه نحو مكتبة أعرفها جيدًا، أمسك بعلبة بلاستيكية صغيرة ترقد بداخلها بطاقة ذاكرة تحمل الكابوس الثالث، مكتوب عليها بخط صغير (كابوس رجل الفئران)

أعطاها لي وهو يبتسِم قبل أن يغمِز بعينه وهو يقول: " هذا الكابوس سيُعجِبك للغاية"

نظرت إليه بدهشة دون أن أسأل، لكنه فهِم سؤالي الذي أجهضته المُفاجأة، قال مزهوًا بنفسه: " كابوس مُخيف، مُختلِف عن أي شيء رأيته أو ستراه من قبل، أعتقد أنك ستستمتِع"

وضعت العلبة البلاستيكية في جيبي وأنا أشكره قبل أن أسأله: " هل ينقُصَك شيء؟"

هزَّ رأسه مُبتسمًا وهو يقول: " يوسف بيه.. مُتكفِّل بكُل شيء بالكامل، بداية من أجري مرورًا بالمصاريف اللازمة من أجل بعض البنود المُتفرِّقة كالأدوات والمُعدات التي أستخدمها، وإيجار هذا القصر، الذي أعرف جيدًا أنه كان ملكَك قبل أن تتركه لي"

ابتسمت وأنا أراقب البيت، أفتقد وجودي فيه، أفتقد ذكريات أبي التي تطوف

في المكان باستمرار، أجبته دون انتباه: " كان هذا هو المكان المثالي لفعل الأمر، مكان نائي، أقرب جيرانك على بُعد كيلومترات عديدة، به قبو واسع يصلُح كساحة لحربك التي تخوض"

ربت على كتفي وهو يخرجني من سجن الشجن الذي أسرني وهو يقول: " الحق يُقَال، أنت أدرت الأمر بطريقة في مُنتهى العبقرية، اختيار المكان كان أمرًا ذكيًا، أما الطريقة التي اخترت بها المُرشحين لخلق الكوابيس، فهي درب من العبقرية"

ضحكت وأنا أنظر إليه، كانت هذه هي مرتي الأولى التي أرى فيها شخصًا يصف نفسه بالعبقري، ويبدو أنه لاحظ ابتسامتي الساخرة، فبدأ بشرح الأمر: " في العالم ما يكفي من الشرور، لا يحتمل الأمر المزيد من الشرور، لذا اتخذت من الأمر مذهبًا، خصوصًا مع الأصوات التي تُطاردني، كانت تلك الأصوات التي تُطلِق على نفسها أصوات السماء تأمرني بتطهير هؤلاء الأشرار من شرورهم، كُل واحد منهم ارتكب من الشرور ما يكفي لتدنيس مدينة بأكملها، سأقص عليك أفعالهم ذات يوم، لكن اليوم وهنا.. هؤلاء هُم فئران تجاربنا، ونحن نطهرهم من خطاياهم، الجميع سيخرجون من هنا فائزين"

ضحكنا سويًا، في الحقيقة لا، لم يكُن الأمر غريبًا أو قاسيًا، لابد من ضحايا كي يتقدَّم العلم، وحياة هؤلاء المُهمَّشين ثمن ضئيل للغاية مُقابِل الاستمرار حتى النهاية في هذه التجربة الجديدة، حياتهم التي لا قيمة لها وقود بخس للتقدُّم العلمي، ودعته وأنا أخرج من بيتي القديم مُتجهًا لشقتي الجديدة التي تتوسَّط أحد أفخم المُجمعات السكنية الخاصة في مكان لم أكُن أحلم بالمرور بجواره أصلًا، مُتحمسًا للذهاب ضغطت دواسة الوقود لتنطلق السيارة بسُرعة وهي تُزمجِر

لدينا كابوس جديد

(11)

أبي يكره الكذب..

حقيقة بسيطة، وأمر لا خلاف عليه

البيت مملكته، أمي خادمته، ونحن رعاياه

أيضًا حقيقة بسيطة، وأمر لا خلاف عليه

ولأن البيت مملكته هو، ونحن مُجرَّد رعايا لا حول لنا ولا قوة، فكان لزامًا علينا أن نلتزم بما سنّ من قوانين، افعل ما شئت، لكن إياك والكذب، اسرق لو أردت، لكن حين يواجهك.. اعترف، حينها سيكون العقاب أهوَن وأسهَل كثيراً عن عقاب الكذب

قال ذات مرة أن الأمر يتعلّق بطفولته، وأنه كذب على والده فعاقبه شر عقاب كي يوبخه، لكن الأمر لم يمُر عليه مرور الكِرام كما آمل جدي، تحوّل الأمر لعقدة نفسية كبرت معه، وحولته لشخصٍ يكره الكذب بطريقة مرضية

نعيش في شقة جدي - رحمه الله - من بعد وفاته، أمر يتعلّق بالقوانين أو شيء كهذا، لا أعرف تحديدًا، لكنني أتذكّر أنني سمعته يتحدّث مع والدتي ذات يوم ويقول لها أن الشقة ستضيع وتذهب لمالك العقار لو مات جدي وهو يسكنها بمُفرده، لهذا انتقلنا إليها في آخر أيام جدي، وتركنا الشقة التي كان أبي يستأجرها، مات جدي بعد بضعة أيام تاركًا لنا الشقة، وتاركًا جرحًا لن يلتئم في قلوبنا بفقدانه

شقة كبيرة، واسعة، ذات سقف عالٍ، بها أربعة غرف، وصالة واسعة تتسع لشرفتي الطعام والمعيشة، حمام ضيق للغاية، ومطبخ لا بأس به، شرفتين طويلتين بعرض المنزل، إحداهما كان جدي يضع بها بعض أصص النعناع الذي مات حزنًا عليه حين لم يجد من يسقيه بعد وفاة جدي، والأخرى هناك بجوار المطبخ، حولتها أمي لمخزن صغير تضع به الثوم، البصل، البطاطس، والطماطم

الغرفة الكبيرة، التي كانت من قبل غرفة جدي وجدتي - رحمهما الله - تحولت الآن لتُصبِح غرفة لأبي وأمي، غرفة النوم الرئيسية بمعنى أصح، أما الغرفة التي كَبِر بها أبي فتحولت لغرفتنا أنا وأخي الصغير

الغرفة الثالثة تحولت لغرفة لاستقبال الضيوف، باع أبي صالون والدته القديم لبائع الخردة بسبعون جنيهًا، واشترى صالونًا مُستعملًا من أحد باعة الأثاث المُستعمَل، لكنه أبقى على لوحة قديمة اصفرَّ لونها مُعلقة على الحائط، بها سفينة تحاول سبر أغوار بحر هائج وسط أمواج متلاطمة

والغرفة الأخيرة لها عدة أسماء، كـ (غرفة العقاب) أو (غرفة الفئران)، وطبعًا هويتها واضحة تمامًا، غرفة أعدَّت للعقاب، مليئة بالفئران، لا ندخلها مهما حدث سوى حين نكذِب، هل لي أن أخبركم سرًا؟ أعتقد أن هذه هي الغرفة التي عوقِبَ فيها أبي حين كان صغيرًا، يبدو أنه يهابها كثيرًا، يتجنبها، لا يقترب منها، ويخشاها

دخلتها؟ نعم بالطبع، دخلتها مرتين من قبل، مرة حين أخبرت والدي أن المُدرس الخصوصي يطلب ستون جنيهًا في الشهر، بينما في الحقيقة كانت الشهرية خمسون جنيهًا فقط لا غير، عاقبني لأنني كذبت، لم يطلب مني العشر جنيهات، ولم يتحدَّث بشأنها، ليلتها قبعت في الظلام داخل الغرفة، لم أتبيَّن ما فيها سوى في النهار، ظللت طوال الليل أستند إلى الحائط بجوار الباب، أدفن رأسي بين ركبتي وأبكي، الظلام دامس بالداخل، لا يوجد أي مصدر للضوء، مع شروق الشمس بدأت

تتسلَّل إلى الغُرفة من بين خصاص النافذة، رأيت الغرفة، بضع صناديق من الورق المقوى القديم التي تملأ الغُرفة برائحة عفن غريبة، رأيتها تتحرَّك أكثر من مرة لكنني كذبت نفسي، ودلو صدئ قديم يتظاهر بأنه دورة مياه

ودخلتها مرة أخرى حين تأخرت بعد المدرسة، عندما سألني أبي لماذا تأخرت؟ أخبرته أن المُدرِس كان يشرح لنا حصة مُهمة، وأنني كُنت في حاجة لفهم هذا الدرس، لكنني لم أعرف أنه سيأتي إلى المدرسة ليسأل أساتذتي، ويعرف منهم أن حصتنا الأخيرة كانت حصة ألعاب، وأنني تأخرت لأن المباراة كانت قوية ولم أنتبه للوقت، في المرة الثانية كان الأمر أخف وطأة على نفسي، رغم حُزني وهلعي، لكن الأمر كان أهوَّن، بكيت قليلًا إلى أن غلبني النوم، حلمت بامرأة عجوز وجهها وجه قط شرس، وعيناها الصفراوتين تلمعان في الظلام، كانت تقترب مني ببطء وبحركة آلية، حاولت أن أهرب منها، لكنها كانت تتحرَّك بخفة كالقطط، إلى أن حاصرتني في النهاية في أحد أركان الغرفة

بدأت تلدغني بأظافرها في قوة، آلمني جسدي، بكيت وبكيت حتى استيقظت من شدة الألم، حينها رأيتهم، الفئران التي تسكُن وسط الصناديق المصنوعة من الورق المقوى، كانوا يقرضون جسدي بجوعٍ، صرخت فيهم وركلتهم بعيدًا عني، جروا فزعين ليختبئوا بعيدًا وهم يتساءلون ما لهذا البشري الذي شعر بالغضب لأننا حاولنا أكله؟

وقتها رأيت الأمر، وأقنعت نفسي أنني أتخيله، رأيت ظلًا غريبًا لشخص يختبئ خلف الصناديق، لكنه اختفى بعد لحظات، كأن لم يكُن، خشيت أن أخبر والدي بالأمر فيتهمني بالكذب ويعاقبني بالحبس في غُرفة الفئران مع الظل المُخيف والفئران القارضة ليلة أخرى

لكن اليوم الأمر مُختلف، سرق أخي سيجارة من علبة أبي، لم تكُن مرته الأولى،

لكنها كانت المرة الأولى التي يعرف بها والدي، اكتشف الأمر بالمُصادفة حين كان يعنّف أحد أبناء الجيران الذي وجده يشرب سيجارة في زقاق مُظلِم، ففوجئ بالفتي يخبره أن ابنه الصغير يشرب معه السجائر التي يسرقها من علبته، ترك الفتي المُدخِن وصعد إلى المنزل غاضبًا، كُنت أجلس على منضدة الطعام أستذكر دروسي في انتظار طعام الغداء، سألني عن مكان أخي فأخبرته أنه نائم في غرفتنا، دخل إلى الغرفة كالإعصار، أمسك به من أذنه وهو يصرخ به، شعر أخي بالفزع، لم يفهم ما حدث، سأله والدي بصرامة: " هل تشرب سجائر؟ هل تسرق مني سجائر؟"

كانت الإجابة على السؤالين هي نعم، ونعم

وبالطبع في منزلنا لا مجال للكذب، الصدق والصراحة فقط ولا شيء غيرهما، لكن أخي اختار أن يسلك طريقًا آخرًا، سأله بخوف: " من الذي أخبرك بالأمر؟"

اعتبر والدي أي إجابة بخلاف نعم هي مُجرَّد كذب، لذلك صفعه على وجهه بقُوة، نزف أخي من أنفه وهو ينظر لأبي بدهشة، كانت هذه هي مرته الأولى التي يضرب أحدنا، حاولت أن أتدخَّل، لكنه ركلني بقوة، كان ثائرًا لسببٍ غير معلومٍ، سقطت أرضًا، صفع أخي مرة أخرى، وقفت سريعًا واقتربت منهما وأنا أحاول الدفاع عن أخي مرة أخرى، لكنه أمسك بي أنا الآخر، جرنا جرًا إلى غرفة الفئران، فتح الباب وألقى بنا بالداخل

الظلام دامس، والخوف يزداد في قلوبنا، كانت هذه هي مرة أخي الأولى في هذا المكان، حاولت أن أهدئ من روعه، لكنه كان يرتجف بشدة، احتضنته وأخذت أطمئنه، أنا هنا.. شقيقك الأكبر هنا

بعد قليل هدأ، وهدأت ضربات قلبه وبدأ يتنفَّس، تحدثنا قليلًا لكن أبي طرق الباب بقوة وهو يأمرنا بالتزام الصمت التام، لم نجد بدًا من الإنصات لأوامره

نام في حضني، انتظمت أنفاسه بين ذراعيّ، أسجيت جسده على الأرض وعدَّلت

من وضع رأسه برفقٍ ولينٍ، وجلست بجواره أبكي حالنا، أب قاسي لا يعرف للرحمة معنى، وغرفة مُظلمة بها شيء مُخيف، وأطفال لا قِبَلَ لهم بما يجابهوه

غرقت في بحار أفكاري لوهلة قبل أن أسمع حركة خافتة من خلف صناديق الورق المقوى، التفت وقلبي يدُق بقوة لأراقب الصندوق وهو يتحرَّك، ظهر الفأر الرمادي القذر من خلفه، يراقبني في صمت وعينيه تلمعان في الظلام، وقف في مكانه ثابتًا يراقبني وكأنه ينتظر شيئًا ما، رأيت صندوق آخر بطرف عيني وهو يهتز، وفأر آخر يظهر من خلفه، وثالث، ورابع، وعاشر

فئران عديدة، يلتمع الشر في عينيها وهي تنظر لنا بغضب، وكأنها تتفحَّصنا، اقترب الفأر الأول منّا في خطوات بطيئة، راقبني وشاربه يتحرَّك، فجأة.. ودون أي مُقدمات هاجمني، قرض اصبع قدمي الصغير، ركلته بقوة وأنا أصرخ من الألم، ويبدو أنها كانت الإشارة التي ينتظرها باقي الفئران، صرير الفئران يعلو وكأنهم يصرخون، استيقظ أخي من نومه فزعًا وهو يضع يديه على أذنيه، كان يرتعِد من الخوف وهو يراقب الفئران تتحرَّك في الظلام

لكننا لم نكُن نعلم أن القادم أسوأ، ما رأيته لن يُمحى من ذاكرتي ما حييت

بدأوا يقفون فوق بعضهم البعض، يلتفون على بعضهم البعض، تتشابك ذيولهم، وكأنهم فئران مُدربة على هذا الأمر، أو.. أو كأن هناك من يُحركهم بعصا سحرية لا أراها، تراجعنا إلى ركن الغرفة ونحن نراقب الأمر، أعيننا تتسع خوفًا والرعب يتخذ من قلوبنا سكنًا

تسلقوا بعضهم البعض، تضافرت أجسادهم والتفت حول بعضها البعض، وبالتدريج بدأ يتكوَّن شكلًا مُخيفًا، شكلًا لرجلًا بشريًا مكوَّن من الفئران، صريرهم يعلو، وتكوينهم الجسماني يتكامل، إلى أن اكتمل شكله

وقف أمامنا ببطء وكأنه يطالعنا دون أعين، يترنَّح، لا يستطيع الحفاظ على

توازنه، يبدلون أماكنهم سريعًا في جذعه في محاولة لضبط الإيقاع وحفظ الاتزان، أخيرًا استقر فوق قدمين من الفئران، نظر نحونا ونحن في أحد الأركان نرتعد خوفًا، صرخ أخي بصوت مليء باللوعة: " أبي.."

صرخ والدنا من الخارج وكأنه ينتظر النداء، يبدو أنه يستمع لما يحدُث: " اصمت أيها الوغد الصغير.."

حاول أخي أن يُبرِّر ندائه قائلًا: " لكن، الفئران يا أبي.."

صرخ أبي وهو يدُق الباب بعصاه بغضب: " اصمت، اصمت أيها الوغد وإلا أتيت إليك.."

ابتلع خوفه وقرَّر الصمت، الصمت لم يدُم سوى لثوانٍ قبل أن نسمع صوتًا قادمًا من جحيم مُستعِر يقول بغضب: " أنت.. لي.."

ارتعدنا، بحثنا عن أمان مفقود في أحضان بعضنا البعض، لكننا لم نجد سوى الذعر وحده، بحثت عن الكلمات لكنني فقدتها في خضم الهلع، أخيرًا.. تمكنت من الحديث، وبصوتٍ يرتعِد سألته: " من.. من أنت؟"

سمعت ضحكة شيطانية تتكرَّر من كُل مكان من حولي، الصوت يأتينا من كُل مكان، ضحكة تمتلئ بالحقد، بالشر، وبالسُخرية، قبل أن يقول بصوته المُخيف: " أنا الكائن في أعماق الجحيم، أنا ابن الشر، أنا القادم من سقر لأحيل حياتكم جحيمًا، أما أنت.. فلي.."

أمسك بي أخي بقوة، أعتصر ذراعي بين أصابعه المُرتعِدة، كان يبحث عن أمان لا أعرف لا طريق، يبتغي طمأنينة لا أعرفها، أطاح بذراعه كومة صناديق الورق المقوى ليكشف سرها، أظهر ما تُخفي وتبطن

هيكل صغير لما يُشبه الطفل، يرتكِن إلى الأرض في وهنٍ وضعفٍ، يحاول أن يتحرَّك، أن يقاوم، أن يستند على ذراعيه ليقف، لكنه ضعيف، يسعل في قوة وهو

يستسلِم، ورغم أنه مُنكَّس الرأس إلا أنني شعرت بالخوف، هالة شيطانية تحيط به لتملأ القلوب بالخوف والرعب

حاولت التراجع للخلف، إلا أنني لم أجد مساحة باقية بين جسدي وجسد شقيقي والحائط، أمسك بي بقوة، كان يتنفَّس بصعوبة، يلتقط أنفاسه وهو يشهق، سمعت الصوت المُخيف يتكرَّر مرة أخرى: " ها أنا ذا.. حين سألتهمك حيًّا.. سأعود.. أحتاج إليك لأنهض.. أحتاج لقرباني"

اقترب الهيكل الفئراني منّا، مد يده وحاول أن يُمسِك بي، بطريقة عفوية انتحيت جانبًا، حاولت أن أبتعد عنه، لكنني لم أفهم ما يحدث، لم أدرك أنني أترك شقيقي في وجه المدفَع، أمسكت الفئران بشقيقي، عشرات الفئران تجذبه بأفواهها، بدأ الهيكل ينهار، الفئران تحيط به وتلتهمه حيًّا

سمعت صراخه، حاولت أن أنقذه لكنني سمعت الصوت يأتيني مُحذرًا: " إياك والاقتراب"

ابتعد والخوف يملأني، تراجعت والجُبن أسلوبي لألتصق بالحائط البعيد، راقبت الفئران وهي تأكله، راقبته وهو يسكُن، لن أنسى نظرته لي مهما عِشت، نظرة مليئة بالعتاب، نظرة يسكنها اللوم، لكنني كُنت خائف، ارتديت صمتي وأغلقت عيني، وضعت يدي على أذني وأنا أبكي

بكيت أخي، بكيت خوفي، وبكيت عجزي

انتهوا من التهامه، تركوه هيكلًا عظميًا في دقائق معدودة، تحركوا نحو الكيان الراقد أرضًا، فتح فمه في ضعف، بدأت الفئران في الدخول إلى فمه واحدًا تلو الآخر، أخذ يمضغهم في بطء، سمعت عظامهم تتهشَّم، رأيته يزداد قوة وهو يلتهم واحدًا تلو الآخر، سمعت صوت اللحم وهو يهرس ويتقطَّع، وسمعت صوت الباب وهو يُفتح، فتحت عيني، لكن الرؤية لم تكُن واضحة بسبب دموعي، مسحتها بكُم

قميصي وأنا أنظر نحو الباب، رأيت أبي يشير لي أن أذهب إليه بهدوء وهو يُطالع الكيان بطرف عينه

عدوت نحوه بسُرعة، ارتميت في حضنه، رأيت شخصًا غريبًا يُطالعني من الممر الموجود أمام دورة المياه، لم أره من قبل ولا أعرف من يكون، لكن هذا لا يهم الآن، جذبني أبي للخارج وهو يُغلِق الباب سريعًا، سقطت أرضًا، سقط بجواري وهو يحتضنني، يحاول تهدئتي، حاولت أن أشرح له ما حدث: " أخي.. أخي بالداخل.. الفئران.. أكلوه.. شيطان قادم من الجحيم.. ابن الشر"

قاطعني وهو يربت على ظهري وعينيه تمتلئ بالدموع: " أعرف، أعرف يا صغيري"

نشجت كثيراً، بكيت كثيراً، في النهاية فقدت وعيي من شدة الخوف والحُزن بين ذراعيه

حين أفقت، وجدت نفسي في سريري، بين أحضان والدي، ابتسم بحُزن وبدأ يشرح لي ما حدث، لكن الذي سمعته.. غيَّر حياتي بأكملها

" لم أكُن يومًا طفلًا وحيدًا، كان لي شقيق اسمه على اسم شقيقك، سميت شقيقك الأصغر - رحمه الله - بهذا الاسم تيمنًا به، لكن تلك الغرفة كانت دومًا مقرًا له، ابن الشر، لا أعلم جيدًا من أين أتى أو كيف أتخلَّص منه، لكنني ورثته عن أبي، وأبي ورثه عن جدي، الذي بدوره ورثه عن أبيه، وهكذا، ممنوع علينا أن نتحدَّث عنه، ممنوع علينا أن نفكِّر به، لكن على كُل جيل أن يُقدِّم له قربانًا بشريًا مرة كُل عشرين عامًا، على أن يكون من نسل أسرتنا ودم الأسرة يجري في عروقه، لا أعلم يقينًا ما الذي سيحدث إذا لم نلتزِم بهذا القربان، لكن حين اقترب موعده، بدأت أحلم بكوابيسٍ بشعة، بدأت ظلال مُخيفة تطاردني في كُل مكان، والبارحة حلمت به، رأيته، سمعت صوته، وشعرت بشره، حذرني من تجاهل قربانه، وإلا..

سنموت كلنا، أراني لمحة عمّا سيفعل بنا، وصدقني.. ما زال قلبي يرتعِد خوفًا حتى الآن مما رأيت، اضطررت أن أضحى بشقيقك، أن أتركه له قربان على أن نعيش كلنا لعشرون عامًا آخرين، حينها يا ولدي سيكون عليك أن تقدم له القربان التالي، على أن يكون من دمك، هل تفهمني؟"

هززت رأسي بصمت وأنا أبتسم بحُزن، بادلني الابتسام دون أن يعرف أنني اخترت ضحيتي، انتقيت القربان الذي سأقدمه لابن الشر، ارتميت في أحضانه وربت عليّ دون أن يشعُر بالغدر الذي ملأ قلبي

دون أن يدري أن العد التنازلي لحياته بدأ

تسعة عشر عامًا.. ثلاثمائة أربعة وستون يومًا.. ثلاثة وعشرون ساعة.. تسعة وخمسين دقيقة.. وبضع ثوانٍ

(12)

استيقظت من نومي فزعًا، جسدي مُغطى بالعرق البارد، أرتعِد في عُنف وأنا أحاول التقاط أنفاسي، الأمر صعب، هذا الكابوس مُختلِف للغاية، هذا كابوس مُرعِب، وضعت يدي على قلبي أرجوه أن يهدأ قليلًا، يدُق بسُرعة وعُنف فيؤلمني، روحي ترتعِد بداخلي، ورغم أممي خُضت الكابوس منذ عدَّة أيام إلا أنه ما زال يُطاردني، حتى على الرغم من عدم ارتدائي للخوذة، وضعت يدي على صدري وأنا أحاول تنظيم تنفسي، الأمر صعب، خصوصًا بعد أن تخوض تجربة قاسية ومُخيفة مثل هذه

دخلت إلى الحمَّام الصغير المُلحَق بغرفة نومي، خلعت ملابسي وتحمَّمت سريعًا، خرجت لأرتدي ملابسي دون أن أجفِّف جسدي رغم برودة الجو، أحتاج للبرد كي أفيق، أحتاجه أن يخبرني أنني مُستيقظ، لا أريد النوم قليلًا بعد هذا الكابوس، كابوس بشع، ورغم هذا كُنت أعرِف أنه سيُحقِّق أعلى الإيرادات في المتاجر، نهم الزبائن للكوابيس مُرعِب لا ينتهي، شغفهم بالخوف لا ينضب، وهذا سلاح ذو حدين، نستفيد منه لأن الزبائن يتوافدون على المتاجر لتأجير الكوابيس، ويخبرون بعضهم البعض، تزداد شهرة كوابيسنا كالنار في الهشيم، لكنه أمر سيء نظرًا لقلة عدد كوابيسنا، ومُكالمات يوسف بيه التي يحاول فيها إقناعي بزيادة عدد الكوابيس، وكأن الكوابيس تختفي في الأدراج

قطع سيل أفكاري رنين هاتفي، نظرت إلى الشاشة، رقم مجهول.. حسنًا، يوسف بيه يتصِل

أجبت المُكالمة ووضعت الهاتف على أذني، أتاني صوته ممزوجًا بالسعادة: " صباح الخير أيها العبقري الكسول، كابوسنا الثالث يجتاح الإيرادات، يُدمِّر منصات التواصل الاجتماعي، يتصدَّر قوائم الموضوعات التي يتحدَّث عنها روَّاد هذه المواقع، لا نحتاج لأي حملات دعائية، هذه الحملة وهذا النجاح يكفينا ويزيد، والفضل في كُل هذا يرجَع لك أيها العبقري، لو أنك فقط تخبرني من أين أتيت بهذا الوغد العبقري المُلقَّب بالمُتعهِّد، عمومًا.. هناك فتاة شهيرة صورت فيديو على موقع الـ YouTube وهي تتحدَّث عن كوابيسنا، مثل مراجعات الأفلام الشهيرة التي يُقدمها بعض روَّاد هذا الموقع، تقول في الفيديو أنها تعرفك جيدًا، أريدك أن ترى الأمر، ومن ثَم أخبرني هل تستحق أن نُرسِل لها هدية شُكر أم أن الأمور بينكما على ما يُرام"

يتحدَّث كثيرًا وسريعًا، لم يترك لي الفرصة حتى لأرد تحية الصباح، حين صمت قرَّرت أن أعلن عن وجودي، بصوت أجش لم يتركه أثر النوم بعد أجبته: " صباح النور، من هذه الفتاة؟"

سمعت صوت تقليب بعض الأوراق، يبدو أنه يبحث عن الورقة التي كَتَب بها اسمها قبل أن يقول: " رنا النجَّار.. أو شيء من هذا القبيل"

قُلت بصوت خافت: " هَنَا.. هَنَا الصيَّاد"

ضحك بصوتٍ عالٍ وهو يقول: " أجل، هذه هي، هل تعرفها فعلًا؟"

ابتسمت برفق وأنا أقول: " أجل، أعرفها جيدًا"

أتاني صوته عبر أثير الهاتف قائلًا: " احرص على شكرها بشكلٍ يليق بها، الفيديو الخاص بها حقَّق نسبة مُشاهدات لم نكُن نحلَم بها، الرجال هنا يقولون أن علينا أن

تركّز على الدعاية عبر مشاهير مواقع ومنصات التواصل الاجتماعي، انتشارها أكبر وسعرها أرخَص، خصوصًا بعد فيديو هَنَا هذه"

" حسنًا.. سأشكرها بنفسي، وسأحرِص على رؤية الفيديو أولًا"

" قبل أن تُغلِق، هناك شيك في انتظارك في الحسابات، ستُسَر كثيرًا حين ترى الرقم أيها العبقري، وكُل هذا بفَضل كابوسنا الثالث"

" شكرًا يا بيه، سأمُر في الغد لآخذه"

" متى سنتسلَّم الكابوس الرابع؟"

" سأراسِل المُتعهِّد وأخبره أننا بحاجة لكابوس رابع سريعًا"

" حسنًا، لا داعي لإضاعة المزيد من الوقت، عجلة النجاح تدور، هيا.. هيا.. هيا"

انتهت المُكالمة، لكن بدأ قلبي في الخفقان، هَنَا التي نسيتها وسط غمرة انشغالي بالكوابيس والعمل، هَنَا التي تناسيتها، لكنها لم تنساني، وها هي الآن تعود وسط انشغالي لترسِل برسالة خفية، أوحشتني تلك الفتاة، أمسكت بحاسوبي المحمول من على الكومود الصغير الموجود بجوار الفراش، وضعته على قدمي، وفتحت موقع الـ YouTube

(13)

اعتدلت أمام الكاميرا التي تنقل صورتها لملايين المُشاهدين الذين يجلسون في انتظارها، تعرف جيدًا أن موقع الـ YouTube ينقل صورتها بشكلٍ مُباشِر للملايين الذين يُتابعونها، خصوصًا وأنها تقوم منذ عدَّة أيام بالتنويه عن هذا البث المُباشِر، تعرف جيدًا كذلك أنه يجب عليها أن تضيع بعض الدقائق أمام الكاميرا إلى أن يزيد عدد المُشاهدين قليلًا، اختارت أن تقوم ببثٍ مُباشِر بدلًا من تسجيل فيديو لأن هذا يزيد من حميمية العلاقة بينها وبين متابعيها، خصوصًا وأنها دائمًا حريصة على الرد على بعض تعليقاتهم لتؤكِّد دومًا على فكرة أنها قريبة منهم

ابتسمت حين وصل العدد لعددٍ لا بأس به، بدأت حديثها

" مرحبًا بكُم.. في البداية دعوني أقدِّم نفسي لمن لا يعرفني.. أنا هَنَا الصيَّاد.. Coach Life أو مُخطِّطة حياة كما يقولون، واليوم أنا هنا لأخبركُم بشيءٍ جديدٍ للغاية عليّ أنا شخصيًا، وعليكم أنتم الآخرين

كما يعرف مُعظمكُم أو أغلبكُم، كُنت فيما قبل أعلنت عن متجر صغير يُقدِم خدمة غريبة وجديدة للغاية، تأجير الأحلام، وأخبرتكُم أنني شخصيًا اخترت أن أؤجِّر من هذا المتجر كابوسًا يُدعى كابوس الغُميضة، وكتبت انطباعي عن الكابوس وقتها، وذهب الكثيرون منكم لاستئجار الكابوس، وأخبروني برأيهم الذي كان مُطابقًا لرأيي، الأمر كان عبقري، دربًا من العبقرية

أنا هنا اليوم كي أخبركُم بشيئين، بفضل الله سُبحانه وتعالى ثم بفضلكُم فالمتجر الصغير وجد راعيًا رسميًا وصار سلسلة محلات ضخمة وكبيرة، وزادت مكتبة أحلامه وكوابيسه لأضعاف ما كانت من قبل، لولاكُم ولولا منشوراتكم وتعليقاتكم وآرائكم التي شاركتموها معي ومع الموجودين في مواقع التواصل الاجتماعي لمَا نَجَح الأمر، أنا سعيدة لأننا دعمنا شخصًا موهوبًا مثل فؤاد، العالِم والمُخترِع العبقري الذي اخترع وطوَّر جهازًا مثل هذا، ولأنني استطعت رد جزءً من دينه عليّ، لأنني كُنتُ مدينة له

مرحبًا يا سُندس، أشكرك جدًا على كلامِك الرقيق

شكرًا لك يا رؤوف، شرف عظيم لي

المُهم.. لنستكمِل حديثنا، السبب الثاني والأهم، أنا هنا اليوم لأحدثكُم قليلًا عن كوابيسه العبقرية، صحيح أنهم ثلاثة فقط، لكنهم في مُنتهى العبقرية

الكابوس الأول كان كابوس الغُميضة، كابوس مُرعِب، خصوصًا المشهد الأخير في الكابوس، وما يزيد من تأثيره أنك تستيقظ بعده مُباشرةً، الأمر فعلًا كان مُرعِب الأجواء كابوسية ومُقبضة والكابوس بشع وتفاصيله مُرعبة، لكنه تجربة مُمتعة.. أنصَح الجميع أن يقوموا بتجربتها

أما الكابوس الثاني، المُسمى بكابوس المُحقِّق، فكان تجربة كافكائية الطابع، رأيت أحدهم يقول في التعليقات من قبل أنه ينتمي للرُعب القوطي، لا أعلم معنى هذه الكلمة، لكنه يدور في أجواء مُظلمة مُرعبة، حبكة الكابوس كانت مُختلفة، لم تتكرَّر ولم أراها من قبل، هذا الكابوس أقوى من سابقه، رغم أن نهاية الكابوس الأول تتفوَّق على هذه النهاية، أو ربما أنا لم أفهمها جيدًا، لكن الشيء الذي أريد أن أقوله هنا بدون أي حرق لأحداث الكابوس، حين تصل للفندق، تصف سيارتك وتهبط منها، تلمَح شخصًا يطالعك من خلف جذع شجرة، لكنك

لست هنا من أجل التحدُّث معه، تتركه وتطرق باب الفندق، ومن ثم تتوالى الأحداث

هذا الرجل مُهم للغاية، وستعرفون السبب قريبًا

مرحبًا يا جيداء، لم أركِ منذ حين، لعلكِ بخيرٍ يا صديقتي

مُعتز الراوي، أشكرك كثيراً على إطرائك وأتمنى أن أظل عند حُسن ظنِّك دومًا

نعود مرة أخرى للكوابيس، الكابوس الثالث، الأقوى على الإطلاق، كابوس رجل الفئران، اسمحوا لي أن أقول لكم أن هذا الكابوس كان أكثر شيئًا مُرعبًا رأيته في حياتي، يا رباه، تجربة - رغم أنني استمتعت بها - لكنني لن أفكِّر في خوضها مرة أخرى مهما كلفني الأمر، لكن نصيحتي لكم أن عليكم أن تقوموا بتجربة الأمر، كابوس مُرعِب بكُل ما تحمله الكلمة من معنى، أتمنى لو أنه يُمحى من ذاكرتي كي أشاهده مرة أخرى، لا أعرف كيف تحمَّل صُنَّاع الكوابيس هذه التفاصيل المُرعبة، لكن الأمر وبكُل تأكيد كان ناجحًا، هذا الكابوس كان وأعتقد أنه سيظل جوهرة تاجهم

دعوني أحدثكُم عن تفصيلة أخرى في هذا الكابوس، حين يفتح لك أباك الباب، وتخرج لترتمي في أحضانه بعيدًا عمَّا يحدث داخل غرفة العقاب، تلمح رجلًا يقف في الممر الموجود أمام الحمَّام، في خضم أحداث الكابوس، تتجاهله وترتمي في حضن والدك، لكن بقليلٍ من التركيز ستكتشف شيئًا هامًا

أنه ذات الرجل الموجود في الكابوس الثاني، هو نفسه المُختبئ خلف الشجرة

أعتقد أن لهذا الرجل قصة سيكشفونها لنا في أحد الكوابيس، لا أطيق صبراً لكابوسهم الرابع، ولا أستطيع الانتظار لأكتشف سر هذا الرجل الموجود في الكابوسين بهذا الشكل الذي لا يُمكِن أن يكون صدفة بأي حال من الأحوال

فؤاد، لو أنك تشاهِد هذا البث المُباشِر فدعني أشكرك شكرًا جزيلًا على هذه التجربة، أما بقيتكم فأنصحكم بهذه التجربة لو لم تجربوها بعد، أخبروني في قسم التعليقات هل جربتم الأحلام المؤجَّرة أم لا، وإذا ما كُنتم قد جربتموها، ففي رأيكم ماذا كان الكابوس الأقوى؟

إلى لقاءٍ آخر، كونوا بخير دائمًا وأبدًا

مع السلامة"

(14)

نهر النيل، شجيرات خضراء يانعة، وهَنَا الصيَّاد

التجسيد الفعلي لمقولة الماء والخُضرَة والوجه الحَسَن، نظرت نحو النيل، نجلس في مكان يجمع بين راحتيه مطاعم ومقاهي عصرية تحمل أسمائها علامات تجارية عالمية، ونجلس داخله في مقهى عصري يطل على النيل مُباشرة، دون سور حتى يفصل بيننا وبينه، كان المكان من اختيارها، وبصراحة.. كانت قد أُحسنت الاختيار

صمتنا حين اقترَبَ النادل يحمل كوبين من عصير البرتقال الطبيعي، وضع الأكواب وسأل لو أننا نُريد شيئًا آخرًا، شَكَرْته في أدب وصَرَفْته في رِقة، ابتسمت وهي تتذوّق عصيرها، مسحت شفتيها برقة بمنديل ورقي كانت تُمسِك به

قالت دون أن تُفارقها ابتسامتها: " سعيدة للغاية أنني رأيتك مرةً أخرى"

اتسعت ابتسامتي بدوري وأنا أجيبها: " أنا أسعد منكِ"

صمتْ قليلًا، شعرت بالتردُّد يجتاح جسدي، ابتلعت تردُّدي وقرَّرت أن أتحدَّث: " أوحشتني.."

احمرّ وجهها خجلًا، وزادها خجلها بهاءً، توردت وجنتيها بلونٍ خُلق خصيصًا ليزيدها حُسنًا وهي تنظر نحو النهر الجاري كما تجري مشاعري بداخلي الآن، خفق قلبي حين نظرت لي فجأة ورأيت عينيها تلمعان، لمعة عرفت جيدًا ماذا يختبئ خلفها

قالت بصوتٍ رقيق لو سمعته عصافير الكناري لتوقفت عن التغريد خجلًا من قُبح أصواتها: " أنت أيضًا.."

ابتسمت وأنا أقول: " لا تعرفين مدى سعادتي برؤياكِ اليوم يا هَنَا"

اتسعت ابتسامتها وهي تقول: " عيناك فضَّاحة أيها الشاب العبقري"

ضحكت من قلبي على تعقيبها المَرِح، غلبها خجلها فحاولت تغيير الموضوع، وغلبني إعجابي فتركتها تُدير كفَّة الحوار، قالت: " الكوابيس شنيعة، من أين لك بها؟"

فكرت قليلًا في كذبة مُقنعة، قبل أن أقرِّر إخبارها الحقيقة غير كاملة: " لدينا فريق من المتطوعين الذين يتعرضون لظروف مُعينة قبل النوم ومن ثَم نحاول تتبُّع أحلامهم وكوابيسهم، لكن الأمر يسير ببطءٍ شديد، لم ننجَح سوى في استخلاص كابوسين فحسب طوال هذه المُدَّة"

بالطبع هناك ضغث صغير، لكنه ليس أمرًا أريد إخبارها بها وسط هذه الجلسة الممزوجة بالرومانسية، جرنا الحديث عن الكوابيس للحديث عن الأمر بأكمله، حكيت لها تفاصيل عديدة لم تكن تعرفها، لكنني كُنت ألاحظ امتزاج الحماس في عينيها بالإعجاب الواضح الذي لا تحاوِل اخفائه، وكأنها ترغب أن ألاحظه

لكن هناك شيئًا هامًا أثار انتباهي

" ما شأن هذا الرجل الذي ظهر في كابوسين مُتتاليين، ظهر في كابوس المُحقِّق وهو يقف مُختبئًا خلف شجرة، وظهر كذلك في كابوس رجل الفئران يتأمَّل لحظة خروج الطفل من غرفة العقاب"

رفعت حاجبي في دهشة، ويبدو أنها فهمت من إيماءتي الصامتة جهلي التام بالموضوع، سألتني في دهشة: " ألم ترى الكوابيس؟"

أجبتها وقد شعرت بالخجل: " بلى رأيتها، لكن يبدو أنني لم أنتبه لهذه التفصيلة تحديدًا"

تأملتني بدهشة لوهلة قبل أن تقول: " توقعت أنكم على دراية بالأمر، خصوصًا وأن الشخص ذاته ظهر مرتين، بل أنني وبعض الآخرين توقعنا أن هناك كابوس سيقص علينا قصته ويُبرِّر لنا سبب ظهوره المُتلاحِق"

تشتَّت ذهني عند هذا الحَد ويبدو أنها لاحظت الأمر، كانت تضطر لطرح السؤال ذاته على الأقل مرتين من أجل أن أنتبه بما يكفي وأجيبها بإجابات مُقتضبة شاردة، أجلس معها بنصف عقل فحسب، بينما النصف الآخر هناك، تائه وسط الكوابيس، أتسائل عن هذا الرجل المُلثَّم الذي يسكُن كوابيسنا، من هو؟ من أين أتى؟ وكيف له أن يحتل كوابيسنا بهذا الشكل؟

شعرت بيدها تُمسِك بيدي، توقَّف الزمن عند هذه اللحظة، رباه.. لماذا لم أخترع جهازًا لإيقاف الزمن؟ تبًا للعلم إن عجز عن اختراع جهاز يُخلِّد لنا هذه اللحظات

تاه عقلي وسط مئات المشاعر والأحاسيس اللطيفة التي ما انفكت تُهاجمني بمُجرَّد لمستها لي، قلبي توقَّف عن النبض تمامًا وأخذ يصرُخ باسمها في ولع لم أعرف له معنى من قبل، بينما روحي كانت تذوب بداخلي، نظرت لها وحاجبي يرتفعان في دهشة بالغة، ليس من فعلتها، وإنما دهشة على مشاعر لم أكُن أعرف أنني أمتلكها من الأساس

شعرت بالحرج، كادت ترفع يدها لولا أنني أمسكت بها، أو لأكون أكثر دقة، تشبَّثت بها تشبُّث رضيع أتى الدنيا لتوه بأمه الحنون، زارتها ابتسامة رقيقة في زيارة سريعة لم تدُم للحظات قبل أن تحمر وجنتيها خجلًا وهي تشيح بوجهها نحو مياه النيل التي تترقرق كما تترقرق مشاعري بداخلي، احتضنت يدها بين يدي، كان

جلدي يتنفس لمستها، عيني تحتضن صورتها، تركت يدها تستكين في يدي بخجلٍ زادها بهاءً وحُسنًا

تحولت دفة الحديث تمامًا، لم أعُد أتذكّر اللعين الذي اقتحم كوابيسي، وإنما بت أحلم بالحسناء التي سكنت ضلوعي

كانت عينيها تلمعان بحُبٍ لم أكُن أتخيَّل أن يكنه لي مخلوق في يومٍ من الأيام، وكانت يدي ترتعد بعشقٍ لم أشعر به تجاه امرأة من قبل

غازلتها فابتسمت بخجلٍ، صارحتها بإعجابي فبادلتني الشعور، أخبرتها برغبتي في أن تستمر علاقتنا في هذا الدرب فوافقتني

انتهى أحد أجمل وأرق أيام حياتي حين بدأت الشمس في الغروب، اضطرَّت للرحيل بسبب ظروف العمل، ألا لعنة الله على الظروف وعلى العمل، ودعتها وهي تركب إحدى عربات الأجرة، تركت يدها بصعوبة، لكنها رفضت أن تترك قلبي، سكنته وهي تحتل كُل أوردته وشرايينه، فرضت نفسها أميرة على مملكة عشقي وباركتها بحُبٍ أكنه لها من صميم فؤادي المُختلج ولعًا

(15)

انتهيت من لف هذا المسمار العنيد، وضعت المفك جانبًا، تحسَّست زر التفعيل بيد مُرهقة من أثر الفك والتركيب إلى أن وجدته، ضغطته وابتسمت حين أصدرت الخوذة صوت الهدير الخافت المُميَّز لتُخبرني أنها بدأت في العمل، كان يومًا طويلًا مُرهقًا، ولولا أن حلَّته هَنَا لكان من أكثر أيامي إرهاقًا، سريعًا بدأ تأثيرها يظهر على حياتي وفي أيامي، منذ اليوم الأول وهي مؤثِّرة

أغلقت الخوذة مرة أخرى قبل أن أضع بداخلها بطاقة ذاكرة تحتوي على أصل الكابوس الثاني، كابوس المُحقِّق، الكابوس الذي ظهر فيه رجلنا الغامض المُلثَّم للمرة الأولى، أغلقت ضوء المطبخ الذي كُنت أستخدمه كمعمل مؤقَّت لأعدِّل بعض الأشياء البسيطة في جهاز العرض، لم يتطلَّب الأمر عملًا كثيرًا، كُنت أعرف جيدًا أننا ربما نحتاج لهذا الأمر فيما هو قادم، لذا وضعت هذا الخيار داخل الخوذة دون أن أخبر أي شخص، حتى يوسف بيه نفسه لا يعلم، هذا الأمر يُحررني داخل الكابوس، يترك لي حُرية الحركة والتصرُّف داخل الكابوس دون أن ألتزم بسياق وتتابع الأمر كالآخرين، أخذت جهاز العرض الخاص بي بعد التعديل ودلفت إلى غرفتي

ارتديت الخوذة، جهزت الكابوس، استعددت لمُغامرة جديدة يقودني فضولي لأسبر أغوارها

***

وصلت إلى الفندق الذي يختبئ خجلًا خلف أشجار كثيفة، يتوارى عن أعين الفضوليين بحوائطه البيضاء وطوله الشاهق، كبير هذا المبنى بحق، أكبر من أن يكون فندق في قرية نائية، يزداد الأمر غرابة حين أهبط من سيارتي، لفتت عدة تفاصيل نظري، وأول هذه التفاصيل كان الهدوء، الهدوء التام الذي لا يجد ما يخدش حياء سكوته، لا حشرات، لا حيوانات، لا شيء على الإطلاق، حين تلاحظ هذا الصمت، سيكون من الصعب تمامًا أن تفكّر في أي شيء آخر، وصلت قبل رجال الشُرطة، هل وصلت مبكرًا؟ أم تراهم - كعادتهم - سيحضرون متأخرين؟

رأيت رجلًا يطل برأسه من خلف جذع شجرة في مُنتصَف الحديقة، يبدو أنه البُستاني، عرفت منذ النظرة الأولى أنه المنشود، هذا هو هدفي، تجاهلت القصر وبابه الذي ينتظرني لأطرق عليه وغيرت مساري في خطوات سريعة نحو الحديقة، ارتبك الرجل لرؤيتي وأنا أغيّر مساري، يبدو أنه لم يتوقّع الأمر، أو ربما ظن أن الكابوس سيسير كما يسير دومًا دون أن نوليه انتباهًا يستحقه، ملامحه تختبئ وسط الظلام وكأنها تخشى الظهور، بينما بقية جسده يتوارى خلف جذع الشجرة السميك، عاد برأسه خلف جذع الشجرة ليختفي للحظة، على ما يبدو أنه يُفكّر فيم سيفعَل بعد أن انتبه أحد زوّار الكوابيس لوجوده، ويبدو أن تغيّير مسار الكابوس سبّب له فزعًا لا يوصَف، لأنه بعد لحظات قليلة ركض كالمجنون، يرتدي معطفًا طويلًا ذو غطاء رأس يُغطي رأسه، لم أستطيع الوقوف مكاني دون حِرَاك، تركت فضولي يقود السباق، كُنت أشعر بحيوية لم أشعر بمثلها أبدًا، أثار هذا دهشتي قليلًا قبل أن أفطن للأمر، كُنت في جسد شُرطي، يمتاز هؤلاء باللياقة البدنية والقوة، لكنه كان سريعًا، يتحرّك في خطوات مليئة بالثقة كمن تربى في هذا المكان، دخل خلف الفندق قبل أن أصل إليه، سبقني بخطوةٍ واحدةٍ فقط لا غير، رغم هذا.. حين وصلت خلف الفندق توقفت وأنا أشعر بالدهشة، كان المكان خالي تمامًا، لا أثر لمخلوق في هذا المكان

فحصت المكان بعيني وأنا أتنفس سريعًا بسبب المجهود البدني الذي بذلته، لا أجد له أثرًا، وكأن الأرض انشقَّت لتبتلعه، لكن لا.. لا يُمكِن أن يحدُث هذا، عليَّ أن أفكِّر بمنطقية، على أن أبحث عن الأماكن التي من المُمكِن أن يختبئ فيها

أمام عيني مجموعة من الشُجيّرات الكثيفة، من المُمكِن أن يختبئ خلفها، هذا هو المكان الأول الذي فكرت به، وفي الحقيقة كان هذا هو المكان الأنسَب بالنسبة له، كذلك هذا هو المكان الوحيد الذي يتسِق مع الفترة الزمنية القليلة للغاية التي تأخرت بها عنها قبل أن أصل إلى هنا

وكذلك هناك كوخ صغير، حجيرة خشبية صغيرة يبدو أنها مخزن صغير لأدوات البستاني الذي يقوم برعاية حديقة الفُندق، الحجيرة هي المكان الأنسَب للاختباء، فقط لو أنه يملُك الوقت الكافي وهذا شرف لم أمنحه له

في النهاية، أضعف الاحتمالات هي أنه تخطي هذه المسافة واختبئ خلف جدار الفندق البعيد، وهي فرصة ضئيلة للغاية إلا إذا كُنت أطارد البطل الخارق فلاش فقط

أم ترى الأمر توقَّف عند هذا الحد؟ هل نجحت في التخلُّص من الخطأ الموجود في الكابوس؟ من المُمكِن جدًا أن تكون الإجابة: نعم

سيتحتَّم عليّ أن أتأكَّد ليهدأ روعي

لكن لحظة؟ لماذا أفكِّر بهذه الطريقة؟

يبدو أن الأمر يعود للمُحقِّق لأن عقله يعمل بطريقة مُختلِفة تمامًا عن الطريقة التي يعمَل بها عقلي

تحركت ببطءٍ وحذرٍ نحو مجموعة الشجيرات الكثيفة التي اعتقدت أنه مُختبئ خلفها، اقتربت من الشجيرات بيدٍ مُرتعدة وأنا أشعر بالخوف، أخشى أن يُفاجئني بشيء لا أتوقَّعه، أمسكت بالشجيرات قبل أن أسحَب يدي كالملسوع،

لم يمسني شيء لكن انتظار المُفاجأة المُخيفة قد يكون مُخيفًا أكثر منها في بعض الأحيان، عُدت مرة أخرى وأنا أتنفس بعُمق محاولًا السيطرة على نفسي، أمسكت بالشجيرات وحركتها جانبًا في حركة سريعة وأنا أطالع الفراغ الذي يختبئ خلفها، لا شيء.. لا يوجد أي شيء هنا

نظرت للحائط البعيد، لا.. بعيد أكثر من اللازم

لا خيار أمامي سوى الكوخ الخشبي، تحركت نحوه في خطواتٍ بطيئةٍ وأنا أشعر بالخوف يملأني، مشيت لخطوتين تقريبًا قبل أن أقف، نظرت نحو الأرض، طالعت آثر الخطوات الثقيلة المحفور في الطين، تابعت تقدمه بعيني نحو الكوخ، هذا دليل على وجوده هناك، اقتربت بخطواتٍ حذرةٍ، أنا الآن أعرف مكانه جيدًا، وقفت أمام الكوخ وكدت أفتح الباب لولا أن رأيت ما ملأني بالتردُّد

بركة دماء صغيرة تخرج من تحت الباب، تراجعت خطوة للخلف وأنا أنظر لها، هل جُرِح وهو يهرب مني؟ هل يختبئ بالداخل جريحًا وهو مليء بالخوف والرهبة؟

مددت يدي نحو المقبض، أدرته ببطء شديد، فتحت الباب بسُرعة لأفاجئه، لكنه لم يكُن موجودًا بالداخل، نظرت للكوخ جيدًا، مُتسِع بشكلٍ لا بأس به، بداخله بعض الأدوات التي تُستخدَم في العناية بالحدائق المنزلية، فأس، شوكة، بعض المطارق، وعدة أدوات أخرى لا أعرف كنهها، لكن هذا لم يكُن هو ما لَفَت نظري، تعلقت عيناي بالصيدلية الصغيرة المُعلّقة في نهاية الكوخ، تأملتها بعينين مليئتين بالفضول، ماذا تفعل صيدلية منزلية داخل كوخ بستنة؟

دخلت إلى الكوخ وبدأت أتقدَّم نحوها، بيدٍ اغتصبها التردُّد اقتربت منها، كُنت أرى انعكاسي في مرآتها، وجهي مليء بالخوف والقلق، تنفست ببطء وأنا أحاول أن أهدأ قليلًا، فتحت الصيدلية، فارغة تمامًا من الداخل، لا شيء على الإطلاق، غريب

أغلقتها، تجمّد الدم في عروقي، شلني الخوف تمامًا، تأملت ملامحه في المرآة، كان غريبًا مشوّه الوجه، يقف خلفي تمامًا، لكن.. لكنه لم يكُن هنا منذ لحظة واحدة، أمسك بي بقوة، شهقت خوفًا وأنا أشعر بقشعريرة خوف باردة تسير في جسدي، أجبرني على الالتفات وهو يقبض عليّ بقبضة مليئة بالثقة، اعتصرني بين يديه وهو يصرخ بصوتٍ مليء بالخوف: " هذا ليس حلم، هل تفهم؟ ليس حلم، ليس حلم، عليك أن تُدرِك الأمر، هذا.. ليس.. حلمًا"

كان الأمر أكبر من قدرتي على الاحتمال، دقات قلبي تكاد تخترق صدري من شدة الخوف، استيقظت وأنا أشهق في فزع شديد، أمسكت بالخوذة وانتزعتها من على رأسي سريعًا وألقيتها على الفراش بجانبي وأنا أتحاشاها كالمجنون، كما لو أنه على وشك أن يخرُج من داخلها

ماذا كان يقصد بأن هذا ليس حلمًا؟

(16)

" أفكّر في إيقاف المشروع بشكلٍ رسمي، ولا أعيد تشغيله مرة أخرى قبل التأكُّد من كُل شيء"

ضرب يوسف بيه بقبضة يده على مكتبه وهو يقف بقوة وعلى وجهه تبدو أعتى علامات الغضب وهو يصرُخ قائلًا: " ماذا تقول؟ هل جننت؟ توقف المشروع؟ الآن! يبدو أنك فقدت عقلك"

حاولت أن أبرِّر موقفي: " لكن الكوابيس بها خطأ، هناك شخص يُراقِب الموجودين بها"

صرخ بي ولعابه يتطاير في الهواء: " ولو.. ولو وجدنا أنها مليئة بالأخطاء، طالما المشروع ناجِح ويُحقِق لي أرباح، لن أوقفه"

كُنت أخشى ثورة غضبه على الرغم من أنني في أي وقت آخر لم أكُن لأسمَح له بأن يتحدَّث معي بهذه الطريقة، حاولت تهدئته: " عليك أن تجلس وتسمعني"

انعقد حاجبيه في غضب قبل أن يجلس قائلًا بصرامة: " سأجلِس.. وسأسمعك، لكن عليك أن تتخلى عن هذه الفكرة المجنونة تمامًا"

جلس أمامي وهو يضغط زر استدعاء السكرتيرة، لم تمُر لحظات إلا ودخلت سريعًا، أمرها بغضب: " أريد كوبًا من القهوة.. سريعًا"

شعرت بغضبه فهزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة وهي تنسحِب خارج المكتب سريعًا وتُغلِق الباب خلفها، لم يسألني عمّ أشرب، الأمر حقًا لا يهمني كثيرًا، لكنني شعرت أنه فعل هذا عن قصد كي يشعرني بالمهانة أو بعدم التقدير، أو ربما تراه نسى الأمر وسط ثورة غضبه

لا يهم، طرق بيده على زجاج المكتب كي ينتشلني من أفكاري وهو يقول بنفاذ صبر: " لا أملك الوقت كي تجلس مُفكرًا في أشياء لا أعرف كنهها"

احمرَّ وجهي خجلًا، سعلت كي أضيع المزيد من الوقت الذي أحتاجه لإعادة ترتيب أفكاري قبل أن أقول: " هذا الرجل موجود في الكابوسين الثاني والثالث، لم يتقاطع سبيله مع سُبُل أي من المُستأجرين، رغم أنهم لاحظوه وعرفوا بوجوده، بل وتحدثوا عنه في كثير من مواقع التواصل الاجتماعي، البارحة أردت أن أن أتأكَّد من الأمر، فدخلت داخل الكابوس الثاني، كابوس المُحقِّق.. أنت تعرفه بالطبع؟"

أشار لي بيده أن أستمِر وعينيه تعكسان ضيق لا حدود له، ابتلعت ريقي بإحباط وأنا أستكمِل حديثي: " دخلت إلى الكابوس بعد أن أجريت تعديلًا بسيطًا يسمح لي بالتحكُّم في الشخصية الموجودة بداخله، طاردت الرجل لكنه هرِب مني قبل أن يظهر وهو يصرُخ أن هذا ليس حلمًا وأن عليّ أن أدرِك هذا"

هز رأسه بعدم فهم مُتسائلًا: " و؟"

تنفست بعُمق وأنا أقول: " أريد أن يتوقَّف المشروع بشكل رسمي لقليلٍ من الوقت، و.."

كاد يقاطعني بغضب لولا أن أشرت له أن يترك لي الفُرصة لأستكمِل حديثي: " سأستخدم فترة التوقُّف في دراسة الأمر للوصول لسر هذا الرجل، أخشى أن يُهاجِم أحد المُستأجرين في كابوسه ويُصيبه بجروح، وأخشى ما أخشاه هو أن يحتدِم

الصراع ويموت المُستأجِر داخل الكابوس، وهذه ستكون كارثة لأنه إن مات داخل الحلم أو الكابوس، سيموت خارجه أيضًا"

كاد يجيبني لولا أن سمعنا طرقات على الباب، دخلت على إثرها السكرتيرة وبصُحبتها أحد العاملين في مطبخ الشركة وهو يحمِل كوب القهوة الخاص به، وضعه أمامه وخرج سريعًا بطريقة تدُل على أن السكرتيرة كانت قد حذرته من سوء مزاج يوسف بيه في الوقت الحالي، رشف رشفة من قهوته قبل أن يغمض عينيه قليلًا وكأنه يسمح لخلايا مُخه أن تنتعِش قبل أن يقول: " هل أصاب هذا الرجل المُلثَّم أي شخص؟"

أجبته من فوري: " لا، لم يحدُث حتى الآن، لكنني أخشى أن.."

قاطعني وهو يُطلِق نحوي سؤاله التالي: " هل أظهَر أي سلوك عدائي تجاه أي من المُستأجرين؟"

انتبهت لطريقته، عرفت أين يريد لهذا النقاش أن يتجه، وتوقعت كيف يريده أن ينتهي، عليّ أن أكون أكثر حذرًا، أجبته بهدوء: " حتى الآن لا، لكن كُل شيء مُمكِن، مثلما ظهر فجأة، من المُمكِن أن يتغيَّر سلوكه فجأة، وجهة نظري أن.."

قاطعني للمرة الثانية مُلقيًا بسؤاله الأخير في وجهي: " ألم يكُن ظهور هذا الرجل سببًا في انتشار الأحاديث والشائعات على مواقع التواصل الاجتماعي، ألم يُزد ظهوره من مبيعاتنا ودَفَع المزيد لاستئجار الكوابيس مرة أخرى لرؤيته عن كَثَب؟"

" حسنًا.. لديك وجهة نظر منطقية من الناحية التُجارية، لكن من الناحية الإنسانية.. الأمر خطير"

قهقه ضاحكًا حتى دمعَت عيناه، كلما حاول التوقُّف هاجمته نوبة جديدة من الضحك لتسيطر على هرمون سعادته فتنطلق ضحكاته ترفرف في أرجاء المكان بسعادة، حاول مسح بعض الدموع البسيطة التي تسللت إلى مقلتيه وهو يقول: "

آسف، آسف، هاهاها.. سامحني، من الناحية الإنسانيــ.. هاهاهاها"

تبدلت ملامحه تمامًا وهو يتوقَّف عن الضحك، انعقد حاجبيه في غضب وهو يقول بصرامة: " من الناحية الإنسانية يا عالِم الإنسانية لا نحرق المتطوعين كفئران التجارب الرخيصة، ولا نُعذِب البشر من أجل استخراج أحلامهم، أم أن الإنسانية توقفت على باب قصرك أنت ومُتعهدَك اللعين؟"

رغم صحة كلامه، ورغم تسرعي وعدم انتقائي للكلمات المُناسِبة لإدارة حوار مع يوسف بيه، لكن حدته في الحديث كانت صادمة بشكلٍ لم أتوقعه، لم يُتِح لي الفُرصة لأجيب سؤاله، بل استمر في هجومه الحاد: " يوسف بيه لا يخسَر، مهما كَلَف الأمر، حتى لو هاجم رجلك المُلثَّم المُستأجرين سنجد طريقة لنُقنعهم أن هذا كان جزءً من خططنا، وسنستغِل الأمر في الدعاية والإعلان عن مُنتجنا بشكلٍ أقوى، حتى لو وصل الأمر للدعاية السلبية سأستخدمها، لكنني لم وان أخسَر، هل تفهمني؟"

هززت رأسي غير قادر على صد هجومه، ابتسم بسُخرية وهو يقول: " أتمنى.. والآن إذا سمحت لي، لديّ أشياء أهم من تخيلاتك لأفعلها"

ضغط زر استدعاء السكرتيرة، التي دخلت إلى المكتب بعد ثوانٍ مهرولة وعلامات القلق على وجهها، أشار إليها وهو ينهض عن مكتبه ويوليني ظهره ناظرًا من شباكه الضخم قائلًا بطريقةٍ لا تخلو من السُخرية: " سترافقك حتى الباب، أنرت المكتب يا حضرة العالِم الحريص على الإنسانية"

***

نظرت أرضًا في خجل وأنا أهرب من عينيها قائلًا: " طردني من مكتبه، رغم أنه مشروعي واختراعي، بل وهي أحلامي وكوابيسي كذلك، لكنه طردني وكأنني أتسوَّل منه المال أو ما شابه"

ابتسمت وهي تُمسِك بيدي وتحتضنها بين أناملها الرقيقة: " من هُم مثل يوسف بيه، لا يتحدثون لُغة المنطق أو لغة الإنسانية، يتحدثون لغة واحدة فحسب.. لُغة المال، وبالنسبة له.. أنت مُجرَّد مجنون يريد أن يذبح الدجاجة التي تبيض ذهبًا فقط لأنه يشتهي البيض المقلي"

احتضنت كفها الرقيق بين أصابعي وأنا أرفع رأسي المُثقَل بالهم لأطالِع جنة عينيها، سرقتني لمعة العشق التي تملأهم قبل أن يدُق الحُزن رأسي ليعيدني إلى عالمنا الرث، تأملتها للحظة محاولًا أن أرتِب أفكاري التي ارتبكت في حضرة بهائها الفتَّان: " لكن.. لكن على الأقل كان عليه أن يسمعني، عليه أن يحاورني، نحن شركاء في هذا المشروع يا هَنَا"

هزَّت رأسها وهي تقول: " أعلَم هذا جيدًا، لكن أنت الطرف الأضعف، دونه كان اختراعَك الجبَّار الذي يتحدَّث عنه الملايين حبيس متجر صغير في زقاق جانبي مُظلِم"

ابتسمت وأنا أضغط يدها وكأنني أرجوها أن تظل هنا: " هناك قابلتكِ"

توردت وجنتيها خجلًا وهي تقول: " وهناك أعجبت بكَ"

قالت وهي تسعل بصوتٍ خافتٍ: " أريد أن أسألك عن أمرٍ ما، لكنني أخشى أن تغضب مني"

ابتسمت وأنا أحتضن يدها بقوة بين يديّ، أعلم أنها تعشق هذه الحركة، توردت وجنتيها وهي تقول: " هل تأكدت أن هذه المُشكلة في كُل الكوابيس؟"

ارتخت قبضتي فوق يدها وأنا أسألها بصوتٍ مليئًا بالفضول: " ماذا تقصدين؟"

ابتلعت ريقها وهي تقول: " أقصد هل جربت أن تدخُل داخل الكابوس الثالث وأن تجرب أن تتحدَّث معه، ربما يشرح لك الأمر قليلًا!"

فكرت في الأمر قليلًا، هي وجهة نظر لا بأس بها، لكن ماذا لو هاجمني هذا الرجل الغامض المُلثَّم؟ ماذا لو مُت داخل الكابوس؟

هززت رأسي وكأنني أنفض تلك الأفكار الكابوسية السوداء المقيتة عنه، نظرت إليها، إلى الفتاة التي أحب وهي تجلس أمامي مُهتمة بمشاكلي رغم انشغالها الدائم وعدم تفرغها، أعرف جيدًا قيمة الوقت في حياتها، وأحترِم كثيرًا أنها تجلس معي لتُناقشني وتحاول حل مشاكلي، ابتسمت وأنا أقرِّر أن أطبِّق نصيحتها

عليّ أن أترك التفكير في الأمر الآن، وأن أفكِّر كيف أغرق في بحر جمالها الأخاذ دون أن ينتشلني منه أي شيء

(17)

آن لليل أن ينتصف، وآن لمُغامرتي الجديدة أن تبدأ، نظرت للخوذة المُلقاة على الفراش بجواري وأنا أتنفس بعُمق، لا أريد أن أخوض تلك التجربة، مازال قلبي يدُق بجنون كُلما تذكرت كيف أتاني من الخلف وأمسك بي بقبضتيه القويتين وهو يصرخ فيّ أن هذا ليس حلما

لكن للأسف الشديد، هذه مرحلة لا يجوز فيها استخدام المتطوعين أو فئران التجارب البشرية، لابد لي من دخول الكابوس بنفسي، أنا الوحيد الذي سيستطيع أن يفهم الأمر، كما أنني لا أعرف ما الذي سيحدُث بالداخل، من المُمكِن أن يحدث أي شيء، لذا كان لزامًا عليّ أن أزوره بنفسي، أنا الوحيد القادر على التصرُّف في حال ساءت الأمور

وضعت بطاقة الذاكرة التي تحتوي على أصل الكابوس الثالث، كابوس رجل الفئران، ثاني الكوابيس التي ظهر فيها هذا الرجل المُلثَّم الغامض، هذا لأنه لم يظهر في كابوسي الأول، ضغطت زر التشغيل وأنا أحاول ألا أفكِّر في أي شيء، ارتديتها فوق رأسي، ضغطت الزر للمرة الثانية وأنا أستعد للمُغامرة

أتنهَّد بعُمق وكأنني أطرد توتري، وأترك جسدي يسترخي تمامًا

***

تراجعت والجُبن أسلوبي لألتصق بالحائط البعيد، راقبت الفئران وهي تأكله، راقبته وهو يسكُن، لن أنسى نظرته لي مهما عِشت، نظرة مليئة بالعتاب، نظرة يسكنها اللوم، لكنني كُنت خائف، ارتديت صمتي وأغلقت عيني، وضعت يدي على أذني وأنا أبكي

بكيت أخي، بكيت خوفي، وبكيت عجزي

انتهوا من التهامه، تركوه هيكلًا عظميًا في دقائق معدودة، تحركوا نحو الكيان الراقد أرضًا، فتح فمه في ضعف، بدأت الفئران في الدخول إلى فمه واحدًا تلو الآخر، أخذ يمضغهم في بطء، سمعت عظامهم تتهشَّم، رأيته يزداد قوة وهو يلتهم واحدًا تلو الآخر، سمعت صوت اللحم وهو يهرس ويتقطَّع، وسمعت صوت الباب وهو يُفتح، فتحت عيني، لكن الرؤية لم تكُن واضحة بسبب دموعي، مسحتها بكُم قميصي وأنا أنظر نحو الباب، رأيت أبي يشير لي أن أذهب إليه بهدوء وهو يُطالع الكيان بطرف عينه

عدوت نحوه بسُرعة، ارتميت في حضنه، رأيت شخصًا غريبًا يُطالعني من الممر الموجود أمام دورة المياه، رأيته من قبل وأعرف من يكون، وهذا هو المُهِم الآن، جذبني أبي للخارج وهو يُغلِق الباب سريعًا، سقطت أرضًا، سقط بجواري وهو يحتضنني، تملصت من بين ذراعيه ونظرت للرجل المُلثَّم، تفاجئ من تصرفي فتراجع خطوة للخلف، نظر أبي نحوي وهو يحاول أن يحتضنني مرة أخرى لكنني بدأت أتقدَّم نحو المُلثَّم بخطوات تظهر عكس ما تُبطِن، خطوات مليئة بالثقة لكني تخفي تردُّدًا وخوفًا لا مثيل لهما، هذه المرة الأمر مُختلِف، نحن داخل شقة، لن يستطيع الهرب مني، ويبدو أنه أدرَك الأمر لأنه بدأ يتلفَّت حوله وهو يُدرِك أنه مُحاصَر بدون مكان يهرب إليه، لم يجد سوى باب دورة المياه من خلفه أو المطبخ

عن يمينه، اختار دورة المياه، وهذا ما كُنت أرجو وكُنت أتمنى، المطبخ واسع وبه عدة أشياء من المُمكِن أن يستخدمها كسلاح في حال احتدَّت الأمور، السكاكين، الشوك، يد الهون، وغيرها من الأشياء، أما الحمَّام فضيِّق، سهل أن أحاصره بداخله وأن أنتصِر عليه في حال احتدَّت الأمور، عليّ ألا أنسى أنني في جسد طفل صغير

أغلق الباب خلفه قبل أن أصل، أسرعت الخطى قليلًا كي لا يُغلِق مزلاج الباب على نفسه، دفعت الباب بيدي بقوة كي أستغل عُنصر المفاجأة، دخلت إلى الحمَّام، أغلقت الباب خلفي بالمزلاج مُتجاهلًا صرخات ونداءات أبي الذي لا يفهم ما الأمر، وقفت أنظر في عينيه، كانت هذه المرة الأولى التي أراه عن قُرب، في عينيه نظرة غريبة وهو يطالعني، أنظر في عينيه بتحدي، أريد منه أن يشعر بأنني قد ملكت الأمر الآن، وأنا من يتحكَّم في طريقة سير الأمور

صرخت فيه بغضب: " من أنت؟ وماذا تفعل داخل هذه الكوابيس؟"

هز رأسه بعُنف رافضًا لما يسمع وهو يقول: " هذه ليست كوابيس، ليست أحلام كذلك، يجب أن تفهم هذا جيدًا"

صرخت فيه وأنا أحاصره في أحد الأركان: " ماذا تقصد بأن هذه ليست كوابيس؟ أنا مُتأكِّد من أنها كوابيس، أنا صانعها، أنا صانع الكوابيس"

التصق بالحائط وهو يتلفَّت حوله باحثًا عن مخرج وهو يقول بصوتٍ مُرتعش: " لا، هذه ليست كوابيس، نحن لسنا داخل كابوس من صُنعَك، هذه ليست كوابيس، هذه حقيقة، هل تفهم.. نحن نعيش في لحظة حقيقية"

انعقَدَ حاجبي الطفل الذي أسكنه وأنا أقول ببطء مُفكرًا في الأمر: " لحظة حقيقية؟ ماذا تقصد؟ انتظر لحظة، كيف تتحدَّث بهذه الحُرية داخل الكابوس؟ كيف تتحدَّث هكذا في كابوسٍ مُبرمَج؟"

أمسك رأسه بغضب وهو يقترِب مني، وضع يديه على كتفي وهو يقول بلهجةٍ

مليئة بالخوف: " نحن لسنا في كابوس، هذا ليس كابوس، كيف يُمكِن أن يكون شخص بمثل هذا الغباء؟ نحن في ذكرى!"

رفعت حاجبيّ في دهشة وأنا أردد غير مُصدِّق: " ذكرى!"

أومأ برأسه وهو يقول: " ذكرى، نحن في ذكري خاصة بأحد الموتى"

هززت رأسي بالرفض، أنا لا أفهم شيئًا من هذا الهراء، أشرت له أن يجلِس على مقعد الحمام، ووقفت أمامه مُستندًا إلى الحائط، سمعت صوت أبي يناديني من الخارج مرة أخرى، تجاهلته.. ليس هذا الوقت المُناسِب لهذه العلاقة الأسرية، جلس وهو يتنفس ببطء، كان يشعر بالخوف رغم تظاهره بالهدوء، يبدو هذا جليًا من حركة عينيه السريعة والطريقة العنيفة التي يتنفَّس بها، يتلفَّت حوله كالمجنون خوفًا من أي غدر قد يصيبه، سألته: " ماذا تقصد بذكرى؟"

فأجابني باستنكار: " ماذا تقصد بكابوس؟"

بدأت أشرح الأمر، الجهاز، التجارب، خوذة العرض، كابوس الغُميضة، المتجر الصغير، الصُدفة التي غيَّرت حياتي بأكملها للأفضل، يوسف بيه، التحوُّل، كابوس المُحقِّق، كابوس رجل الفئران، والإشاعات التي انتشرت عن الرجل المُلثَّم الغامض الذي يسكُن الكوابيس

فكَّر قليلًا مُتجاهلًا صوت أبي الذي بدأ يناديني بنفاذ صبرٍ، قبل أن يقول: " أنت مُخطئ تمامًا، هذه ليست كوابيس، أنت لا تفهم الأمر، أنت الآن تعيش في لحظة حقيقية، أنت في ذكرى، تعيش داخلها كأنك بطلها، تشعُر بها كما شعر بها صاحبها، هذه ذكرى أحد الأموات القادمين من الجحيم"

رفعت حاجبيّ في دهشة وأنا أتساءل مُستنكرًا: " جحيم؟ ذكرى ميت قادم من الجحيم؟ فعلًا؟ هل هذا هو التفسير المنطقي لما يحدُث؟"

توقف وهو يقترب مني، وقف أمامي ونظر في عينيّ وهو يقول: " اسمعني جيدًا، أنا حبيس هذه الذكريات، أنا الموجود فيها، رأيت ما لم تروه، وعشت ما لم تعيشه، أنا حبيس عوالم الذكريات، لذا صدقني.. صدقني حين أخبرك أنني أعرف الكثير مما لا تعرفه أنت"

تنفست بعُمق قبل أن أجيبه: " أنا لا أفهم شيئًا"

هز رأسه وهو يعود ليجلس على مقعد الحمَّام قائلًا: " وأنا كذلك، هناك قطعة ناقصة في تلك الأحجية"

نظرت إلى الأرض، لمعت عيناه فجأة قبل أن يقول: " أنت تُخفي شيئًا"

ارتبكت، حاولت الإنكار، لكنني وللمرة الأولى في هذا الكابوس أشعر أنني مُحاصَر، حاولت أن أكذب، هزَّزت رأسي وأنكرت، لكن لم يشتري كذبتي، ظل ينظر لي بتركيز وهو يُفكِّر، سألني فجأة: " كيف تصنَع هذه الكوابيس؟"

تردَّدت للحظات قبل أن أجيبه كاذبًا: " لدينا مجموعة من المتطوِّعين الذين يتعرضون لظروفٍ معينةٍ تحت إشراف أحد الخبراء قبل النوم كُل ليلة، من أجل استثارة بعض مخاوفهم في محاولةٍ لخلق هذه الكوابيس"

ابتسم وهو يقول مُنتصرًا: " كُنت أعلم.. أنت تكذِب"

دقَّ قلبي بعُنف وأنا أحاول أن أدافِع عن نفسي: " أنا لا أكذِب، أنا أقول الحقيقة"

كيف تبدلَت الأدوار بهذه الطريقة؟ كيف حاصرني بأسئلته وفطنته بهذا الشكل؟ كيف تحوَّل من وغدٍ خائفٍ إلى جهاز كشف كذب بشري؟

وقف مرة أخرى وهو يقترب مني قائلًا: " أنت تتحاشى النظر في عينيّ أثناء إجابتك، وكذلك تضع يدك على فمك وخلف أذنك كثيراً، هذه الطريقة التي يُخبرني بها جسدك أنك كاذب، لغة الجسد يا صغيري"

شعرت بالارتباك، كأنني عاري أمامه، حين تقف أمام شخص قادر على تحليل لغة جسدك أو قراءة تصرفاتك تشعر بالضعف، حاولت أن أنظر بعيدًا حتى يتسنى ليّ التفكير في الأمر لكنني تذكرت حديثه، نظرت في عينيه المليئتين بالثقة وشعرت أنني أتلاشى أمامهما، لم أعد أستطيع المقاومة، نظرت أرضًا وأنا أغلق عينيّ في ضعف واستسلام، أمسك بي من كتفي وأجبرني على الجلوس على مقعد الحمّام المُغلَق وهو يجلس على ركبتيه أمامي، سمعنا صوت أبي يتبدَّل من الخارج، لم يعُد مليئًا بنفاذ الصبر والقلق بعد الآن، أصبح مليئًا بالغضب والحنق

كُنت أعرف أننا نخسَر مزية الوقت.. علينا أن نختصر قليلا

قال ببطء: " عليك أن تخبرني بكُل شيء"

تردَّدت للحظة قبل أن أقرِّر أن أخبره بكُل شيء عن المُتعهِّد، قناعه المُخيف، عمليات تعذيبه المتنوِّعة والمُختلِفة، عن المساكين الذين يضحون بحيواتهم وسلامهم النفسي من أجل تقدُّم العلم، عن الظروف القاسية التي يمرون بها من أجل خلق وصناعة الكوابيس، وعن جودة عمل المُتعهِّد

صمت وهو يتأملني، على وجهه نظرة قاسية، توقعت أن أسمع مُحاضرة عن احترام النفس البشرية وعن مدى الخطأ الذي ارتكبته حين سمحت للمُتعهِّد بتحويل معملي السابق إلى حلبة تعذيب، رفع يده وهو لا يزال مُحتفظًا بتلك النظرة على ملامحه، ظننت أنه على وشك أن يصفعني، أغلقت عينيّ بحذر وأنا أتوقع الأسوأ

شعرت فجأة بيده تربت على كتفي، قهقه ضاحكًا بسعادة، فتحت عينيّ ببطء فوجدته يتقافز في المكان مُتراقصًا في مرح، كان سعيدًا لسببٍ لا يعلمه شخص سواه، ويبدو أنه انتبه لحيرتي حين رآني أطالعه كالمعتوه فاغر الفاه، قال بسعادة وهو يفرقع بأصابعه في الهواء: " العُنف يا صغيري.. العُنف"

هززت رأسي دون أن أغلق فمي وأنا أقول: " أجل، العُنف.. ماذا به؟"

نظر لي بدهشة مُمتزجة بعدم التصديق، وكأن الأمر واضحًا لكن غبائي يقف حائلًا بيني وبينه، هزّ رأسه وكأنه ينفض الدهشة عنها وهو يقول: " العُنف له تأثير كبير على أشياء كثيرة في عالمنا يا بني، ويبدو أن مُتعهدك هذا! ماهر في عمله، لأنه خلق من العُنف ما يكفي لفتح صدع بين عالمين، عالم الموتى.. وعالم الأحياء، لكن الصدع لم يسمح للموتى بالعبور، بل سمح لذكرياتهم، مرَّت عشرات الذكريات إلى عالمنا، ليتلقفها جهازك العبقري ويترجمها لك على شكل صوتٍ وصورةٍ، لكنك اعتقدت أنها أحلام أو كوابيس لأنك.."

أتانا صوت أبي من الخارج: " ماذا تفعل بالداخل؟ افتح يا ولد؟"

نظر نحو الباب للحظات قبل أن يقول: " أنت اعتقدت أنها أحلام أو كوابيس لأنك كُنت تنتظِر الأمر وتتوقعه، لكنك لم تُدرِك أن هذه نفحات من الواقع، هذه ذكريات الموتى القادمة من الجحيم، أنت تعيش في ذكرياتهم الأخيرة، ترى سبب خوفهم، تشاهد الأسباب التي عذبت أرواحهم وعلقتها في هذا الصدع اللعين"

تصاعَد صوت الضربات العنيفة على الباب الخشبي القديم الذي كاد ينخلِع تحت تأثير قوة هذه الطرقات، أتاني صوته غاضبًا: " افتح يا ولد"

نظر نحو الباب بقلق قبل أن يقول: " إذا أردت أن تفهم، قابلني عند الفنار القديم"

نظرت إليه في بلاهة وأنا أسأله: " أي فنار؟"

ابتسم وهو يقول: " ألم يصلك الأمر بعد؟ حسنًا.. خلال أيام ستعرِف، الذكرى تحرَّرت وأنا عشتها بالفعل، ستعيش تجربة لن تنساها"

نظرنا نحو الباب ونحن نسمع صرخات الأب الغاضب قبل أن يقول: " الآن عليك أن تذهب، سنتقابل مرة أخرى عند الفنار القديم، لا تنسَ"

هززت رأسي موافقًا وأنا أبتلع ريقي بصعوبة

(18)

حين وُلِدت، عَرِف الجميع بوصولي، ليس بسبب صوت بُكائي العالي أو بسبب صرخات أمي التي ردَّدها الصدى في كُل أنحاء الجزيرة، بل لأن الجميع كان ينتظر قدومي، جلس الجميع على أعصابهم في انتظار الخبر، لو ولدت أمي فتاة لتنهَّد الجميع في راحة وطفقوا يشربون المياه الغازية ويحتفلون، ولعمَّت الفرحة أرجاء الجزيرة، لكن هذا لم يحدُث، لأنني ذكر..

" وُلِدَ الملعون.. وُلِدَ الملعون.. وُلِد الملعون.."

هكذا صرخ الفتى الصغير الذي كان أول من عَرِف بالخبر، وقف يسترق السمع بجوار نافذة الغُرفة التي تلِد بها والدتي، حين سمع شهقة القابلة العالية التي كادت تخلع قلبها من صدرها، عَرِف من فوره، وبهكذا أخذ يجري بين البيوت وفي الطرقات ليُخبِر الجميع بالخبر التعيس

وُلِد الملعون

وُلِدت أنا..

***

بلدتنا بلدة صغيرة هادئة، في الحقيقة نحن نستخدم لفظ بلدة مجازًا، لكن لو تحرَّينا الدقة في الحديث عنها سنستعمِل لفظة جزيرة، لأن هذه هي الحقيقة، نعيش في جزيرة

جزيرتنا جزيرة صغيرة هادئة، هذه هي البداية المثالية، في منطقة نائية وسط أحد المُحيطات الثائرة التي قلما تهدأ أمواجها، هناك عدة جُزر صغيرة متجاورة، بين هذه الجُزر، هناك واحدة فقط مأهولة بالسُكّان، أما الجُزر الباقية فبكر لم تمسها يد البشر لتُدَنِّس عذريتها، الجزيرة المأهولة تلك.. هي جزيرتنا

يقولون أن الأمر بدأ بحارس لهذا الفنار القديم المُهدَّم الموجود في جزيرة صغيرة مجاورة، لا يعرفون تحديدًا من الذي بناه، أو ماذا يخدُم، لكن القَصَصْ يخبرنا أن حارس الفنار العجوز كان رجلًا عاديًا، لكنه رأي فيما يرى النائم أمرًا وتكليفًا بحماية هذا الفنار حتى لو كلفه الأمر حياته، ولأنه رجل مُتَدَيِّن يُصدِّق في الرسائل والعلامات، حَسَم أمره فور أن استيقظ، أخبر زوجته التي لم تستطِع أن تعترض، لملم حاجياته وحزم أغراضه، اشترى قاربًا صغيرًا وملأه بالمؤن والبضائع بعد أن اتفق مع صاحب المتجر على أن يُرسِل له مثل هذه الأشياء شهريًا وترك له نقودًا تكفي لعامٍ قادمٍ، أخذ زوجته وحاجياته وأبحر مُتحديًا المحيط الهائج بأمواجه الثائرة مُتجهًا نحو الفنار القديم، لكن الجزيرة التي يقف فيها الفنار مُنتصبًا كانت برية جامحة، لا تصلُح للسُكنى أو للحياة، لذلك وَجَب عليه البحث عن جزيرة تصلُح، وسُرعان ما وَجَد ضالته في هذه الجزيرة، سكنها هو وزوجته، واستمرت الحياة بينهما إلى أن أنجب ولد وسُرعان ما تبعه بآخر، وبدأت الأسرة الصغيرة تعيش هنا في سلام، نفدت نقودهم وجفّت جيوبهم من المال، لكن السمك لم ينفد والبحر لم يجف من الرزق، وبدأ اتفاق جديد بينه وبين صاحب المتجَر، يقايضون البضائع بالسمك يومًا بعد يوم

في يوم لعين شعر صاحب المتجر بالمرض، لكنه لم يستطع أن يُهمِل زيارة الجزيرة، هذا معناه أن يجوع سُكّان الجزيرة ليومٍ كاملٍ، لذا أرسَل ابنتيه المُعتادتان على مُساعدته في تسيير أعماله في المتجر إلى الجزيرة لتوصيل الحاجيات المطلوبة

والإتيان بالأسماك المُتَفَق عليها، وكأن الأمر مُقدرًا وقع أبناء حارس الفنار في عشق مُتبادَل مع بنات التاجر، لم يطل الأمر بفضل العلاقات الجيدة بين الأسرتين، وتم الزواج وانتقلت الفتاتين إلى هنا للعيش مع أزواجهن

منذ اليوم الذي انتقل فيه العجوز إلى هنا لم يعمَل الفنار، لم يُضئ مصباحه يومًا، بل إنه لم يطأ أرض جزيرته كأنها ليست موجودة، يقضي نهاره في مُراقبتها، ويُمضي ليله في نومٍ مُتقطِعٍ يتخلله كثير من الدقائق التي يخرج فيها من فراشه مهما كانت حالة الطقس كي يُطالِع الفنار مُبتسمًا، لكن الأمور لم تَسِر يومًا كما يُريد المرء، بدأت حالته الصحية في التدهوٌر، حاول أبناءه أن يقنعوه أن يترك الجزيرة معهم مُتجهًا نحو أقرب مدينة لزيارة الطبيب لكنه قال إن الأمر بسيط ولا يستدعِ القلق من أجله

وبدافع اهمالٍ جسيمٍ صدقوه وتجاهلوا حالته الصحية التي تسوء أمام أعينهم يومًا بعد يوم، إلى أن أتى اليوم المشؤوم، استيقظوا ليلًا على طرق والدتهما الخائفة على أبواب أكواخهم الصغيرة

تعالوا.. والدكُم يحتضر

كان العجوز يُصارِع الموت، يأبى أن يلفُظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يُسلِّم رسالته لولديه، وكأنه رسول يحمل رسالة مُكلفًا بتبليغها مهما كلفه الأمر، كانت رسالته آخر ما نطقه قبل أن تبرئ الروح لخالقها

***

" يا أبنائي، يجب أن تعرفوا أن مصباح الفنار القديم لم يُضيء منذ أتينا إلى هنا، ولن يضيء أبدًا سوى في حالة واحدة فحسب، حين يأتي الشر الأعظَم إلى عالمنا، حينها سيكون عليكما أن تُقدما له قربان بشري كي يرحل عن عالمنا ويذهب إلى العالم التالي، ولتعلما.. أن موعده قد اقترب، لن يرحل ولن يتركنا سوى حين ترسلون

له قربانه، ولتعلما يا صغاري أن قربانه ليس عاديًا، هو طفل ملعون، لُعِن قبل أن يولَد، سيأتي إلى دنيانا موصومًا بالعار قبل أن يُطلِق أولى صرخاته كرضيع، ذكر من نسل ذكر من نسل ذكر، الابن الثالث لابن ثالث وُلِد لابن ثالث، هل تفهمون؟ هذا هو الوحيد الذي يصلُح كقربان، حين يأتي الولد.. سيعني هذا شيئًا واحدًا فقط، الشر الأعظم هنا.. وصل عالمنا، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذا العالم"

***

كان جدي هو الطفل الثالث، سبقه ذكران ولم يتبعه أحد، وكذلك كان أبي، أصغر أبناءه الثلاثة الذكور، لذا حين أنجَب أبي شقيقيّ اللذان يكبرانني سنًا بدأ يشعُر بالقلق والتوتُّر، لكن أمي كانت دائمًا ما تبكي، تريد أن تُنجِب فتاة، لطالما حَلِمَت أن تُنجِب فتاة صغيرة، في النهاية استجاب لها أبي وكأن لبكائها مفعولًا أقوى من السحر، ورغم أن البلدة تقدَّمت كثيراً وأضحت الجزيرة مُجتمعًا صغيراً يضم بين جنباته مئات السُكَّان إلا أنهم لم ينسوا نبوءة العجوز وتحذيره، كان الجميع يرمُق الفنار بنظرات جانبية مليئة بالخوف والقلق، طاردتنا الخيالات التي رأينا فيها مصباح الفنار يسطع بضوء يُغشي الأبصار ويقبض القلوب، تخيَّل كُل منا الشر الأعظم بطريقته، فمنَّا من رآه وحشًا لا يُهزَم، ومنّا من رآه شبحًا يطوف في الأرجاء، لكن الواقع دومًا ما يختلِف عن الخيال

تبدلت الطُرق الرملية لطرق مُمهدة، وتبدلت الأكواخ الخشبية لبيوت ضخمة متينة، لكن النبوءة ظلت على حالها لم تتغيَّر، راسخة في أذهان وأفكار كُل سُكَّان الجزيرة

بعد ولادتي نبذوني، أصبحت كالوباء، الكُل يتحاشاني والجميع يبتعِد عن طريقي، طردوني من المدرسة الصغيرة المُلحَقة بالجزيرة بحجة أن وجودي يُثير خوف الأطفال الآخرين، استغنوا عن خدمات أبي بسببي، فترك عمله وبدأ يعمل

كعامل نظافة بأجرْ لا يكاد يسد رمقنا، أما والدتي فمُنعَت من دخول السوق، لم يسمحوا لها بشراء أي احتياجات، أشقائي يُطاردهم الأطفال بالحجارة كُلما خرجا من البيت، أصبحنا نأكل بواقي الموجود في السوق، المعطوب والفاسِد، طردونا من منزلنا لنسكن آخر مُهدَّم على حدود الجزيرة، لكن والحق يُقَال لم يسيء أحد من أهلي مُعاملتي يومًا، لم يحملونني مسؤولية ما يحدث، لم يقُل لي أحدهم يومًا أنت السبب، كانت كلمة الحمد لله موشومة في قلوبهم وأرواحهم

الحمد لله..

تحملنا البلاء، وصبرنا على ما أصابنا، لم نتسلَّح بغيرها، الحمد لله..

إلى أن أتى اليوم المشؤوم، بعد ثمانية عشر عامًا بالتمام والكمال، في مُنتصف الليل، اللحظة ذاتها التي وُلِدت فيها، فُتِح المصباح، أضيء ليهتك عرض ظلام الليل، أنار المكان وكأنه يصرخ ها أنا أحذركم، لقد حضر الشر الأعظم

تردَّدت أصوات الشهقات، وحملت الرياح أصوات أدعية وصلوات رددتها ألسن مسكونة بالخوف وقلوب مسها الرعب، لم يمُر الكثير من الوقت إلا وأتوا

وقفوا على بُعد خطوات من بيتنا الحقير وكأنهم يخشون الاقتراب، يحملون المشاعل المُزدانة بالنيران لتُبدِّد سطوة ظلام الليل من حولهم، صرخوا بالنداء بنعتي

" أيها الملعون.. أنت يا ملعون"

حاول أبي أن يخرج لهم لكنني منعته بإشارة من يدي، اليوم بلغت الحُلُم، اليوم أتحمَّل مسؤولية لعنتي كالرجال، فردت صدري وخرجت فخورًا، غير عابئ بحقدهم عليّ، أخبروني أن تعالَ كي تذهب إلى الفنار كي يرحل الشر الأعظم عن عالمنا!

وأخبرتهم أن لا.. لن أتحرَّك من مكاني إلا بشروط..

أن يعود أبي لعمله، وأن تعود أمي لمنزلها، وأن يذهب أشقائي للمدرسة ليستكملا تعليمهما

ضحكوا مُستهزئين، ابتسمت بسُخرية، حسنًا.. أنتم من اخترتم

أخرجت السكين الحاد من خلف ظهري ووضعته على عنقي في حركة سريعة، ضحكوا مرة أخرى، لم يدكوا بعد ما أفعل، كان عليّ أن أتدخَّل بالتوضيح لهؤلاء الحمقى، علهم يدركون فداحة ما أنوي

أنا أملهم الوحيد للنجاة من الشر الأعظم، أنا الجسر الذي سيعبر بالشر الأعظم من عالمنا إلى العالم التالي في رحلته الوحشية بين العوالم..

لكن لو مُت.. أي أمل لديهم؟

اتسعت أعينهم فزعًا حين أدركوا الأمر، بدأوا في تهدئتي بعد أن كان الاستهزاء والسُخرية هُم أسياد الموقف، كانت شروطي مُحدَّدة وواضحة، وكانت الموافقة هي أجابتهم، ألقيت بالسكين أرضًا وأنا أخترق صفوفهم مُتجهًا نحو مينائنا الصغير

توقعوا أن يقتادوني إلى هناك قهرًا، لكنهم فوجئوا حين ذهبت بكامل إرادتي، ركبت المركب الخشبي الصغير، سببت خوفهم مُتجاهلًا دموع أهلي، وانطلقت إلى هناك، إلى الفنار المُضيء الذي يقف مُتحديًا شجاعتي

***

هبطت من مركبي إلى جزيرة الفنار، نظرت خلفي مُتطلعًا إلى أشباح المشاعل المُتراقِصة التي تقف على الجزيرة الأخرى خوفًا من أن أهرب، بصقت أرضًا وأنا أسب جبنهم، بمُجرَّد أن وطأت قدمي الأخرى أرض الجزيرة انطفأ ضوء الفنار، عاد الظلام يُسيطر على كُل الموجودات برفقة الصمت، صديقه المُقرَّب

تنفست بعُمق، رغم تظاهري بالشجاعة لكن هناك شيئًا انكسر مع هروب

الضوء، كان الخوف يسكُن قلبي الذي بدأ يدُق بعُنف، خشيت أن يخترق صدري أو يُحطِّم ضلوعي، تنهدت في محاولة بائسة لطرد الخوف من روحي وأنا أتحرك بلا هدى نحو الفنار

سمعت الحركة الأولى من على يميني، صوت خافت لما يُشبه خطوة شخص يتسلّل في الظلام، التفت إلى يميني سريعًا، باحثًا عن مصدر الصوت، الظلام دامس رغم أن عيني بدأت تعتاد عليه، تبًا.. الظلام والخوف يصنعان الرعب ويدسونه دسًا داخل الأرواح، تجاهلت الأمر وأنا أحاول أن أهدأ كي ينتظم تنفسي وتستكين دقات قلبي، لكن الصوت أتاني عن يساري، الصوت ذاته.. خافتًا كسابقه، التفت إلى يساري سريعًا وأنا أقف مكاني ثابتًا كالتمثال، لكن الظلام يُخفي الموجودات، لا أرى شيئًا

سمعت الصوت من خلفي، ومن أمامي، سمعته من كُل الجهات، لكنني تجاهلته وأنا أغلق عيني وأسير في طريقي نحو الفنار، لا أعلم أين أذهب أو ماذا سأفعل، لكن قلبي يخبرني أن أستمِر، حاولت أن أهدأ.. أن أتناسى أصوات الحركات التي تدور من حولي، تعثرت أكثر من مرة لكنني لم أفتح عيني قط، أجهل ما يحدث من حولي، لكن الجهل أحيانًا ما يكون نعمة من نعم الله..

آه..

تأوهت بألم وأنا أفتح عيني رغمًا عني، حجر ضخم اصطدم برأسي بقوة، خيط من الدماء سال على وجهي ليمنعني من فتح عيني اليُسرى بوضوح، تأملت المكان من حولي بحثًا عن الشخص الذي رجمني بالحجر، لكن الجزيرة خالية إلا من أشياء تتحرّك لا أراها ولا أعرف ما هي، وكأن هذا الحجر كان إيذانًا بالبدء..

بدأت عشرات.. بل وربما مئات الأحجار في رجمي من كُل مكان، آلمني جسدي، رأسي، يدي، آلمني جسدي بأكمله، أظن كذلك أن هناك ضلع أو إثنين انكسرا تحت

وطأة الرجم، أكثر من جرح يولِّد ألمًا لا يُحتمَل في رأسي الذي كان ينزف بعُنف، بدأت في العدو بشكلٍ عشوائي، تأقلمت عينيّ مع الظلام، وبدأت أراهم

أطياف سوداء مُختلفة التكوين ومُتغيِّرة الأشكال تتحرَّك من حولي، منها من يحاصرني ويحاول الوصول إليّ ومنهم من يرجمني بالحجارة في محاولة لتعطيلي أو إبطاء سُرعة حركتي وتشتيتي كي لا أستطيع التفكير، أعدو بشكلٍ عشوائي، انخلعت فردة حذائي وهربت لتتركني أنا ومثيلتها الأخرى وحدنا في تلك الحرب غير المفهومة، كانت الصخور حادة تحت قدمي تؤلمني مع الحركة، لكن التوقُّف الآن يعني شيئًا واحدًا فقط.. الموت رجمًا بالحجارة!

عدوت حتى وصلت لجدار الفنار، لم أعلم ما الذي من المُفترَض أن أفعله، لمحت بابه الخشبي الضخم، باب قديم هائل الحجم يقف شامخًا وسط الظلام وكأنه لا يخشاه، حاولت الوصول إليه لكن الأطياف حاصرتني، الحجارة تؤلمني وهي تصفعني وتركلني في كُل مكان في جسدي، سقطت أرضًا بجوار الباب وأنا أنزف، يبعد عني بضع خطوات لكنني لا أقوى على الذهاب إليه، ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أبكي ألمي وأحزاني.. دقَّت ساعة الموت وأتى ملاك الموت من بينهم ليقبض روحي، أراه مُقتربًا بعباءته السوداء ومنجله الذي يحصد به الأرواح، هل هو هنا حقًا أم أنها تهيؤات ما قبل الموت؟

قبل أن أعرف إجابة سؤالي رأيت باب الفنار يُفتَح ويخرُج منه شخص وسيم، تأمل ملك الموت المُقترِب بفزع قبل أن يقترِب مني بسُرعة وهو يساعدني على النهوض، تسندت عليه وهو يحملني كيفما اتفق وصولًا للباب، سمعت زئيره من خلفي، غاضب لأن فريسته تهرب منه، لكنني لم أنظر خلفي، دخلنا إلى الفنار وتركني الوسيم أسقط أرضًا وهو يُغلِق الباب سريعًا، سمعنا صوت الطرقات الذي لم يتوقَّف، تأملني لوهلة قبل أن يسألني: " هل أنت بخير؟"

***

لم يتوقَّف صوت الطرقات العنيفة، وكأن الطبيعة أبت إلا أن تُشارِك الأطياف حنقها وغضبها، بدأت الأمطار في الهطول بغزارة، قطراتها تلطم الماء على صفحته الرائقة بعُنف، بينما تزأر السماء برعدها، يضيء البرق الموجودات لتختفي تلك الأطياف للحظات قبل أن تظهر مرة أخرى مع انحسار ضوء البرق لتستكمِل محاولاتها لاقتحام الباب

تأملته وأنا أتحامل على آلامي وجراحي وأقف مُستندًا على الحائط: " من أنت؟"

ابتسم وهو يقول: " أنا سبب قدومك إلى هنا"

انعقد حاجبي وأنا أسأله: " ماذا تقصد؟"

فرقع بإصبعه في الهواء فتوقَّفت الأشباح عن الطرق واختفى صوت حركاتها الخافتة، ازدادت ابتسامته حتى وصلت لدرجة مُخيفة، كان يبتسم ابتسامة واسعة، أوسع من قدرة البشر على الاحتمال، كاد قلبي يتوقَّف عن الدق حين رأيت ملامحه تتبدَّل، حاولت أن أعدو نحو سلم الفنار، توقعت أن يُطاردني أو أن يهاجمني، لكنه وقف يراقبني ساخرًا، فرقع بإصبعه مرة أخرى فوجدت نفسي أعود إلى نقطة البداية، مهما كان عدد السلالم التي أصعدها أو الاتجاه الذي أعدو فيه، مع كُل فرقعة إصبع كُنت أعود لمكاني مرة أخرى

في النهاية استسلمت، وقفت أمامه وأنا أتنفس بصعوبة، سألته بخوف وبصوتٍ مُرتعدٍ: " من أنت؟"

كرَّر اجابته: " أنا سبب قدومك إلى هنا"

هذه المرة فهمت، أنا أقف أمامه، أقف في حضرته، بدأت ملامحه تتبدَّل، وجهه يتحوَّل إلى وجه قبيح مشوَّه، سمعت صوت عظامه تتهشَّم وشكله يتغيَّر لآخر ضخمٍ مُرعِب، تردَّد صوته من حولي، أتاني من كُل مكان، سمعته بداخل رأسي

وكأنه يسكنني: " أنا الشر الأعظم، وأنت سقطت فريسة لخدعتي، سمحت لي أن أقتادك إلى هنا بعد أن أنهكت قواك بمُطاردات لم يكُن لها وجود سوى في رأسك، أمرت الصخور أن ترجمك وأمرت عقلك أن يخدعك، وبعد أن أنهكت قواك، قُدتك إلى هنا، والآن.. اسمح لي أن أنهي ما أتيت من أجله، فهناك عوالم أخري يجب على زيارتها"

فتح فمه البشع ليكشف عن صفين أسنان يغزوهما اللون الأصفر، ورائحة كريهة لم أشم مثلها من قبل، أغلقت عيني في خوف وأنا أتبوّل على نفسي، كان الأمر أكبر من قُدرتي على التحمُّل

***

حين سمعوا صوت صرخاتي يتردَّد من داخل الفنار، أطفأوا نيران مشاعلهم وهُم يعودون للجزيرة مرة أخرى، يعرفون جيدًا أنهم نجحوا في مُهمتهم، لكنهم يعرفون كذلك أن الشر الأعظم سيعود مع ظهور الملعون الجديد

حينها سيُنير مصباح الفنار

لتبدأ اللعنة مرة أخرى

(19)

أجاب اتصالي من المرة الأولى، لم يستغرق الكثير من الوقت، لم أجيب تحيته أو سؤاله الغريب عن سبب اتصالي في مثل هذا الوقت المُتأخِّر، ولم أسمَع نصيحته التي وجهها لي عن أهمية الاتصال في أوقاتٍ مُناسِبة في الصباح وعدم الاتصال في مثل هذا الوقت المُتأخِّر والناس نيام يحلمون، سألته في صرامة: " هل لديك شيئًا لي؟"

صمتَ قليلًا قبل أن يقول بصوتٍ تملأه الدهشة: " كيف عَرِفت؟"

كان الوقت ضيقًا وصبري يكاد ينفذ، أريد أن أذهب إلى الفنار القديم للقاء المُلثَّم، أريد أن أفهم ما يحدُث داخل أحلامي، قرَّرت ألا أجيب سؤاله، ووجهت له سؤالي التالي: " إذن لديك كابوسًا جديدًا، متى سيكون جاهزًا؟"

تبدلَّت نبرة صوته وامتلأت بالضيق بسبب طريقتي، لكنه على أي حال أجابني: " في الصباح الباكِر"

أجبته: " خلال ساعة سأكون عندك، وأريده أن يكون جاهزًا"

أنهيت المُكالمة قبل أن تسنَح له الفرصة بالرد، لكنني أعرف جيدًا أن الكابوس سيكون جاهزًا على بطاقة ذاكرة خلال ساعة

***

لم يُخيِّب المُتعهِّد ظني فيه، حين وصلت للقصر، ترجَّلت من سيارتي وطرقت الباب في سُرعة، وكأنه يقف خلف الباب مُنتظرًا، سُرعان من فَتَحَ الباب وهو يعطيني بطاقة الذاكرة التي تحمل الكابوس الرابع، قطعة من الورق الأبيض كانت ملصوقة عليها يزينها عدَّة كلمات مكتوبة بخطٍ جيد مُنسَق: (كابوس فنار الشر الأعظم)

الاسم مُبشِّر جدًا، يُثير خيالات مُرعبة في خيالي، أغلق الباب في وجهي بعُنف وكأنه ينتقِم من طَريقتي معه مؤخرًا، له كُل العُذر لأنه لا يُدرِك ما يحدُث داخل الكوابيس التي يستخرجها ولا يعرف أنه تسبَّب في فتح صدع بين عالمنا وبين عالم الموتى يسمح لذكرياتهم بالمرور، تجاهلته تمامًا وعدت إلى سيارتي وأنا أقبض على بطاقة الذاكرة بحرص، ركبت السيارة وانطلقت نحو شقتي الجديدة، سيكون عليّ رؤية الكابوس كاملًا مرة قبل أن أتداخل معه وأغيِّر برمجته لأمنحني حريتي بالداخل، ستكون ليلة طويلة للغاية..

***

أغلقت الخوذة مرة أخرى قبل أن أضع بداخلها بطاقة ذاكرة تحتوي على أصل الكابوس الرابع، كابوس فنار الشر الأعظم، استعددت لمُغامرة جديدة يقودني فضولي لأسبر أغوارها

(20)

هبطت من مركبي إلى جزيرة الفنار، نظرت خلفي مُتطلعًا إلى أشباح المشاعل المُتراقِصة التي تقف على الجزيرة الأخرى خوفًا من أن أهرب، بصقت أرضًا وأنا أسب جبنهم، بمُجرَّد أن وطأت قدمي الأخرى أرض الجزيرة انطفأ ضوء الفنار، عاد الظلام يُسيطر على كُل الموجودات برفقة الصمت، صديقه المُقرَّب

تنفست بعُمق، رغم تظاهري بالشجاعة لكن هناك شيئًا انكسر مع هروب الضوء، كان الخوف يسكُن قلبي الذي بدأ يدُق بعُنف، خشيت أن يخترق صدري أو يُحطِّم ضلوعي، تنهدت في محاولة بائسة لطرد الخوف من روحي وأنا أتحرَّك بلا هدى نحو الفنار

سمعت صوت صفيره يأتيني عن يميني، نظرت نحو مصدر الصوت، فتح كشَّافه لأحدِّد مكانه بالضبط، كان يجلس على الأرض مُتكئًا على صخرة كبيرة وينتظرني، اقتربت منه ونظرت له، كانت ملامحه غير واضحة بفعل الظلام، لكن ضوء الكشَّاف الخافت الذي يحاول أن يبدِّد الظلام كان كافيًا لي لأتأكَّد من شخصه

أشار بكشافه نحو الفنار وهو يقول: " هل اكتشفت مُفاجأة هذه الذكرى؟"

ارتعد جسدي حين تذكرت تلك المُفاجأة المُخيفة، هزِّزت رأسي وكأنني أنفض تلك الفكرة بعيدًا، سألته بفضول: " هل ما زلت تُصمِّم أن تُطلِق عليها لقب ذكريات؟"

هزَّ رأسه بالإيجاب، فأطلقت نحوه سؤالي التالي: " لماذا كُل هذا الإصرار؟"

مط شفته وهو يقول ببساطة شديدة: " لأن هذه هي الحقيقة يا.. لم أعرف اسمك حتى الآن؟"

ابتسمت بسُخرية وأنا أقول: " وأنا لم أرى وجهك حتى الآن"

قال مُتسائلًا: " وهل يهمك حقًا هذا الأمر؟"

رفعت كتفي في لا مُبالاة وأنا أجيبه: " على الأقل حتى يتسنى لي أن أعرف مع من أتعامَل"

فكَّر قليلًا قبل أن يقول ماطًا شفته السُفلى: " حسنًا.. لديك وجهة نظر لا بأس بها"

أتبعها بأن جذب اللِّثام عن وجهه في لا مُبالاة موجهًا الكشَّاف نحو وجهه سامحًا لي أن أحظى بنظرة كافية على ملامحه، وقفت أتأمَّل ملامحه كالمشدوه، أعرف هذه الملامح، لست غريبًا عن تلك العينين، كان مألوفًا لي بطريقة لا تحمل الشك، لم يكُن هذا لقاؤنا الأول، وبكُل تأكيد لن يكون الأخير، رباه.. لكم تمنيت هذا اللقاء ورجوته

نظرت في عينيه بدهشة، كان يطالعني مُندهشًا من ردة فعلي، شعرت بدمعة حارة تسقط على وجنتي وأنا أفغر فاهي بدهشة، لابد وأنه يعتقد أنني معتوه الآن، حاولت أن أتحدَّث لكن صوتي أبَى أن يطيعني، كان مُتأثرًا بالصدمة بدوره فرفض الخروج من بين شفتي، تنفست بعُمق وأنا أتأمَّله بغير تصديق، كان المُتسلِّل إلى كوابيسنا آخر شخص توقعت رؤيته في هذا المكان

نطقت بصوتٍ مُرتجِف: " أو.. أوحشتني"

تأملني بدهشة وهو يقول: " هل تعرفني؟"

قالها وكأنه غريق يتعلَّق بآخر أمل له في النجاة، شعرت بلهفته التي تكاد تتقافز من بين حروف كلماته، سألته باستنكار: " ألا تعرفني؟"

هز رأسه بالرفض، كان الأمر غريبًا، من المُستحيل أن يُخطئ في معرفتي أو ألا يتعرَّف عليّ، هناك شيء خاطئ، سألته بدهشة من لا يُصدِّق ما يرى: " أحقًا لا تعرفني؟"

هز رأسه مرة أخرى وهو يقول: " كُلكم مُتشابهين، كُلكم ذات الفتى"

انتبهت حينها لخطأي، أنا حبيس في جسد الملعون داخل الكابوس الرابع، وبالطبع هو يُطالِع الملعون الذي لابُد وأنه رآه بدل المرة ألف مرة مع تكرار الكوابيس مرة تلو الأخرى كُلما أجَّر أحدهم الكابوس، يعيش هذا الرجب في كابوسه الخاص، تحوَّل لسيزيف الذي أجبرته الآلهة على حمل الصخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، وكلما وصل إلى مُبتغاه وصعد إلى قمة الجبل، تدحرجت صخرته إلى الأسفل تجاه الوادي، فيضطر أن يعود مُجرجرًا أذيال الخيبة عائدًا للأسفل مُحضرًا صخرته ودافعًا إياها مرة أخرى نحو القمة في عذاب أبدي لا ينتهي، هذا الرجل يعيش الكابوس كُل مرة، لا ينفك الكابوس يُكرِّر نفسه في كُل مرة، لا جديد تحت الشمس، ولا جديد نحو الكابوس، يعيش في عذاب سيزيفي مُمِل

احتضنته وأنا أقول مُلتاع القلب: " إنه أنا، إنه أنا يا أبي!"

***

جلسنا على صخرتين مُتقابلتين خلف الفنار، أنا الآن أجلس أمام الإنسان الوحيد الذي كُنت أتمنى رؤيته على الرغم من العتاب واللوم اللذان يملئان قلبي نحوَه، اخترت أن أجلِس في مواجهته وليس بجواره لأنظر في عينيه، لأراقب تفاصيله، لتشبع عينيّ من ملامحه التي افتقدتها، قال مُرتبكًا: " لم أتوقَع أن أقابلك أنت تحديدًا، هل كُنت تعرف أنني من وراء اللِّثام؟"

كان بإمكاني أن أجيب سؤاله، لكنني اخترت أن أقايض سؤاله بسؤالٍ آخرٍ: " كيف أتيت إلى هنا؟"

ابتسَم وكأنني أخيرًا سألته السؤال الصحيح، قال بتأني: " " دعني أشرح لك الأمر بقليلٍ من التفصيل، وسامحني إن أطلت أو استطردت، أنا جائع للكلام مع الآخرين، حين انفجَر بي جهاز نقل الوعي الذي كُنت أخترعه، فنى جسدي بالفعل مع الانفجار، لكن وعيي ظل حبيسًا في العالم الذي كُنت أتجوّل فيه قبل أن ينفجر الجهاز، عالم موازي لعالمنا لكن الأمور ساءت فيه لدرجة كبيرة، حرب عالمية ثالثة، انفجارات نووية وقنابل ذرية، فناء البشر، ظهور كائنات مُخيفة متحورة بسبب كُل هذه الإشعاعات، كُنت أقضى نهاري في البحث عن طعام وليلي في الهروب منهم ومحاولات النجاة، إلى أن وجدته"

***

كانت ليلة حالكة السواد، لا أكاد أرى مترًا واحدًا أمامي، القمر يتوارى خوفًا خلف إحدى الغيوم، أسمع صوت حوافرهم وهي تضرب الأرض من خلفي، بقليل من التركيز وكثيرٍ من استراق السمع أعرف أنهما إثنين، إثنين من المتحورين يُطاردونني في تلك الصحراء القاحلة التي تحوّل لها أغلب كوكب الأرض بعب الحرب العالمية الثالثة، أتسلّح بعقلي وذكائي في مواجهتهما، لكنهما يتسلّحان بأنفين بإمكانهما شم رائحتي من على بُعد عشرات الأمتار، لذا الغلبة ستكون لهما لو تأخرت ثانية واحدة فقط في اتخاذ أي قرار، ناهيك عن اختيار قرار خاطئ من الأساس

يشمون رائحتي ويتتبعون خطواتي، الليل أسود، والتيه يطاردني، لا أعلم كيف سأهرب منهما، اختبئت خلف صخرة وأنا أدعو الله أن ينجيني منهما، سمعت صوت حركة خافتة من خلفي، نظرت خلفي فرأيته، كهف مُنير وسط ظلام الليل،

ضوئه يتوهَّج وكأنه يناديني، في اللحظة التي وقفت فيها لأعدو نحو الكهف، وجدت المتحورين خلفي، كان سباقًا خسارته تعني خسارة حياتي، ولولا كمية الأدرينالين الضخمة التي كانت تسري في عروقي لما استطعت بلوغ الكهف، ألقيت نفسي وسط هالة الضوء دون تفكير، لم يكُن هناك وقت للتفكير، شعرت بالضوء يمتص جسدي، وحين فتحت عيني وجدت نفسي في آخر مكان أستطيع تخيُّله

***

اعتدل على الصخرة قبل أن يستكمِل حديثه: " وجدت نفسي داخل الصدع، مُحاطًا بآلاف الذكريات التي تحاول العبور من العالم الآخر وصولًا إلى عالمكُم، ويبدو أنك دون أن تقصد اخترعت الجهاز الذي يصطاد هذه الذكريات ويبلورها لتكون في هذه الصورة اعتقادًا منك بأنها أحلام أو كوابيس، وقطعًا كُنت تظن أن الذكريات الجيدة هي مُجرَّد أحلام، أما الذكريات السيئة فهي كوابيس، أليس كذلك؟"

نظرت للأرض خجلًا، إذا ثبتَت صحة كلامه فأنا مُجرَّد أحمق كبير للغاية اخترع جهازًا لتسجيل آخر لحظات وذكريات الموتى بالصُدفة ولولا أن قابلته لظللت أصدق أنني اخترعت جهاز تسجيل الأحلام وتخصَّصت في صناعة الكوابيس

فجأة قال مُتسائلًا وهو يقف: " هل بإمكانك مُساعدتي على العودة؟"

اتسعت عينيّ بدهشة وأنا أقول: " العودة؟ هل بإمكانك العودة؟"

هزّ رأسه وهو يقول: " أجل، لكنني أحتاج لمُساعدتك"

فكرت قليلًا قبل أن أقول بصوتٍ خافتٍ وكأنني أحدِّث نفسي: " أجل، طبعًا بإمكاني مُساعدتك على العودة، لكن أولًا.. كيف أتأكّد أنك أبي الحقيقي؟ كيف أتأكّد من صحة كلامك؟ "

ابتسم ابتسامة المُنتصر وهو يشعر بدنوَ نصره قائلًا: " كما أخبرتك من قبل، هذه ليست كوابيس أو أحلام، لكنها ذكريات.. ذكريات اللحظات الأخيرة لبعض تُعساء الحظ الذين ساقتهم أقدارهم للموت بتلك الطُرق المُريعة، والذكرى هي حدوث أمر مُعيَّن في تاريخ ومكان مُعيَّن، لذلك بإمكانك أن تتأكَّد من الأمر بنفسك حين تعود لعالمك"

فكرت في الأمر، يبدو طرحه للموضوع معقولًا، يُعالِج الأمور بطريقة تبدو بسيطة ظاهريًا لكنها تفيض بالعبقرية في باطنها، لهذا سموه بالعبقري في زمانه، أفهم الأمر الآن

أكمَل حديثه دون أن ينتظِر ردي: " اذهب للتأكَّد بنفسك، وبعدها سنتقابل سويًا لنُرتِّب الأمر"

سألته فجأة: " أين سنتقابَل؟"

ابتسَم وهو يقول: " في الكابوس الثاني بالنسبة لكَ، أو في ذكرى وفاة المُحقِّق بالنسبة لي"

ودعته وأنا أحتضنه، نعمت بحضن أبوي كُنت أحتاجه حقًّا قبل أن أستعد لمُغادرة هذا العالم والعودة إلى عالمي مرةً أخرى

(21)

فندق في قرية صغيرة نائية على حدود إحدى المُحافظات الصغيرة، قرية أنا مُتأكِّد تمامًا أن عدد الغُرباء الذين زاروها منذ تأسيسها لا يتعدى المئة شخص، لكن هذا ليس الشيء الوحيد الغريب بالأمر، حوائطه البيضاء شاهقة الطول، وتكوينه الضخم الذي يحاول التواري خلف الأشجار الكثيفة المُتشابِكة التي تبدو وكأنها خُلِقَت خصيصًا من أجل أن تحميه من نظرات الغُرباء وأعينهم، حجمه الضخم وتكوينه شاهق الطول يجعلاه وبمُنتهى السهولة يُقارَن بأكبر الفنادق الموجودة في العاصمة، وقفت أمامه وأنا أراقبه بخوفٍ وقلقٍ

صففت سيارتي بعيدًا واخترت أن أشق طريقي إلى هنا مشيًا على الأقدام، لم أريد أن ألفت النظر، خصوصًا أن الغريب في تلك القرى النائية الصغيرة دائمًا ما يكون مَحَط الأنظار، تخفيت وسط ظلام الليل متواريًا عن أعين سُكَّان القرية وصولًا إلى هنا، وقفت أمام البوابة الحديدة الخاصة بالفندق، فكرت في البحث عن وسيلة للتواصل مع الموجودين بالداخل، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة قبل أن أضغط زر الجرس، كان العائق بيني وبين ضغط الزر هو سؤال واحد، ماذا سأقول لهم؟

" مساء الخير، أنا فؤاد، مُخترع وعالِم اخترعت جهازًا لتسجيل الأحلام، ورأيت فيما يرى النائم في أحد الأحلام أنكم قتلتُم شخصًا وواريتموه التُراب هنا، هل أنتم قتلة؟"

غير منطقي، وغير معقول!

تحتَّم عليّ البحث عن طريقة أخرى لدخول المكان، قرَّرت أن أدور حول القصر مرة أو إثنين للبحث وتحديد نقطة الضعف الموجودة فيه، النقطة التي سأستطيع منها أن أقتحِم المكان لأتأكَّد بنفسي من الأفكار التي زرعها الرجل المُلثَّم أو أبي داخل رأسي اللعين

أكملت دورتين، وفي الثالثة وجدت ضالتي، وقفت أسفلها وأنا أدرس الاحتمالات كُلها، شجرة ضخمة عريضة الجذع، كثيفة الأوراق، مُتداخِلة أغصانها تُظلِّل الحديقة الخلفية للفُندق، سيكون من السهل للغاية أن أتسلق جذعها السميك وصولًا لأحد الأغصان التي تتدلى داخل الحديقة الخلفية، ومنه سيكون سهلًا عليّ أن أهبط بهدوء، دون أن أزعِج أحد أو أفرض وجودي على أي من الموجودين

لكن كيف سأخرُج؟ كان هذا سؤالًا هامًا، لكن لم يأن أوان طرحه بعد

بمُجرَّد أن وطأت أقدامي أرض الحديقة، تلفَّتُ حولي بحرصٍ بالغٍ لأتأكَّد أن عملية هبوطي تمت على ما يُرَام، اخترت أن أزور المكان ليلًا لأتخفى في جُنح ظلام الليل، تأملت الفندق، هو ذاته، نفس التفاصيل ونفس المكان، وهذا ما جَعَل قلبي يدُق بقوةٍ وقلقي يزداد بداخلي

حدَّدت وجهتي بناءً على عدة عناصر كُنت قد قضيت يومي مُفكرًا فيها، خطوات الأقدام الثقيلة، والتي من المُمكِن جدًا أن تكون خطوات أقدام شخص يحمِل شيئًا ثقيلًا مما أدى إلى ثِقَل وزنه ووضوح علامات أقدامه وسط الأرض، بركة الدماء الصغيرة التي تحاول الهروب من تحت الباب، والتي بمُنتهى البساطة تعني وجود شخص ميت أو جريح على الأقل بداخل هذا الكوخ الخشبي الصغير، الأدوات المنزلية الموجودة بالداخل، الفأس، الشوكة، والمطارق، جميعها تصلُح لتكون أسلحة أو أدوات للقتل

ولهذا حسمت أمري وحدَّدت وجهتي سريعًا

توجهت بخطواتٍ سريعةٍ إلى الكوخ الخشبي الصغير، مُراقبًا الخطوات الثقيلة الموجودة أرضًا، ومُنصتًا السمع لكُل ما يحدُث حولي، خوفًا من أن يُدرِك أحدهم وجودي ويجهض تحقيقي الذي لم يبدأ بعد

بمُجرَّد أن اقتربت من الكوخ لطمتني الرائحة الكريهة، صحيح أنها مكتومة بعض الشيء وكأن هناك من يحاوِل اخفائها، لكنها رائحة لا خلاف عليها، أعرفها جيدًا، مُميَّزة للغاية، رائحة الموت، تلك هي الرائحة الوحيدة التي لا يُخطئ أي شخص بشأنها حتى لو لم يشمها من قبل

مددت يدي المُرتعِدة نحو مقبض الباب الخشبي، أراقب بعيني آثار بركة الدماء التي جَفَّت وهي تحاول الهروب من تحت الباب، على الرغم من أن أحدهم بذل مجهودًا لا بأس به في محاولة تنظيفها لكن الدماء دائمًا صعبة التنظيف، ترتعِد يدي بشكل يزيد من توتري أضعافًا

أمسك بالمقبض وأنا أديره، توقعت أن يكون مُغلقًا، لكنه خيَّب ظني فيه ودار في يدي بسلاسة، خرجت الرائحة وكأنها تتوق للخروج

تركت الباب وتراجعت للخلف وأنا أغطي أنفي، الرائحة كريهة بشكل لا يُحتمَل، سرب صغير من الذباب كان يطير في السماء فرحًا باستعادته لحُريته، بينما هرِب فئران أو ثلاثة حين فُتِح الباب ليختبئوا وسط ظلام الليل السرمدي، غطيت أنفي وأنا أدخُل إلى الكوخ، المكان مُظلِم، أحتاج لإضاءة، لكن أي إضاءة الآن معناها انكشاف سري بأكمله

انتظرت قليلًا حتى اعتادت عينيّ على الظلام ودلفت إلى الكوخ مُتحاشيًا دهس دودة ضخمة تزحف على الأرض ببطءٍ واستمتاع، لمحت الجسد المتكوِّم في ركن من أركان الكوخ، جُثة مُنتفِخة وقد تحولت لمكان تعيث فيه الحشرات فسادًا،

الفئران تقرضها والديدان تثقبها، أما الذباب فيطير حولها في أسراب بحثًا عن شيء جديد يقتل به ملله

لكنني لا أرى وجه الجُثة من هذه المسافة، لابُد لي من الاقتراب قليلًا، بخطوات مُتردِّدَة دنست جنح الظلام وأنا أقترب منها، كان الأمر لا يُحتمَل، الرائحة كريهة للدرجة التي جعلت عينيّ تدمعان، أخرجت منديلًا وضعته على أنفي في محاولة لدرأ هجمات تلك الرائحة، قطعت طريقي وصولًا إلى الجُثة، لم أقوَ على لمسها، ركلتها برفق بقدمي كي أغيِّر وضعيتها، دنست حُرمة الموت من أجل الاستمرار، وبالفعل.. وكأنها تنتظِر لمستي، انهارت الجُثة في استسلام

رأيت وجهه عن قُرب، كان هو.. المُحقِّق، المُحقِّق الذي لطالما سكنت جسده داخل الكابوس الثاني، وجهه مُنتفِخ متورِّم، عينيه غير موجودتان في مكانهما، ودودة ضخمة تخرُج من محجر إحدى العينين، خرجت من الكوخ مُسرعًا، توجهت نحو شجرة ضخمة وأنا أتقيأ بعُنف، كُنت أنشج بعد أن انتهيت

سمعت صوت خافت، هناك من يقترِب، تلفت حولي لأفاجئ بأن باب الفندق مفتوح، هل عَلِم أحدهم بوجودي؟

هناك صوت حركة خافتة من حولي، لكنني لا أميِّز مصدره حتى الآن..

كُنت أتلفَّت حولي كالمجنون بحثًا عنه حين سمعت صوت حجر يصطدم بجدار الفندق الخلفي، وفورًا نظرت إلى هناك غير عالِم بأنني أسقط في فخهم كالغر الساذج، عَلِمت هذا حين شعرت بالعصا السميكة وهي تصدمني في مؤخرة رأسي بقوة

سقطت أرضًا على وجهي وأنا أسمع صوتهم من حولي، كُلهم هنا، صلاح، شامِل، وسامِح..

لا أملُك رفاهية فقد الوعي ولا أريد لهم أن يمسكوا بي الآن، ما زال هناك الكثير

لأريد أن أفعله، وهناك المزيد أريد أن أفهمه، حاولت أن أقف لكنهم بدأوا بركلي وضربي بالعصا، لو لم يكُن رد فعلي سريع ومُباشِر وخلال عدَّة دقائق سأفقد وعيي وسيكون مصيري مثل مصيره

انتفضت واقفًا وأنا أعدو نحو الشجرة، لا وقت للقتال أو للحديث، الآن وقت الهروب فقط، قفزت للأعلى وأنا أمسك بالسور جذبت جسدي للأعلى لكن ضربة طائشة بالعصا أصابت مفصل كعبي، أصدر صوتًا عاليًا، وسَمِعت صوت قرقعة العظام عاليًا، لكنني كُنت بالخارج، عدوت لأختبئ وسط عدة شجيرات وأنا أسمعهم يتحدثون، تحمل الرياح كلماتهم لتطير بعيدًا عن مسامعي فتحرمني من معرفة خططهم التي ينوون

اتصلت بالشُرطة وأخبرتهم بشأن الجُثة، أخبروني أنهم سيصلوا خلال دقائق فحسب

الآن لديّ مُهمة صعبة، تكاد تُشبه مُهمة المُحقِّق التي فَشَل فيها، عليّ أن أنجو لحين وصول الشُرطة

فكرت بقلق: هل سأنجَح في مُهمتي؟

***

جلست في مؤخرة سيارة الإسعاف وأنا مُستسلِم للطبيب الشاب الذي يحاول مُعالجة الألم الصارخ الذي يعدو في قدمي بجنون، كان قد سَبَق وضَمَّد جرح راسي الذي احتاج للتقطيب كي يكُف عن النزف، ابتسمت حين قبضت هنا على يدي برفقٍ وأنا أتألَم من لمسات الطبيب الذي يفتقد للكثير من الاحترافية، نظرت لها مُبتسمًا، قطعت الطريق في أقل من ساعتين حين علمت بإصابتي، لم تسأل الكثير من الأسئلة، لكن بدلًا من ذلك قرَّرت أن تأتي لتدعمني فقط، وهذا موقف يُحسَب لها

أشارت لي بطرف خفي، فنظرت لأرى ماذا تقصد، كان رجال الشُرطة يقودون المجرمين الثلاثة مُصفَّدين نحو إحدى السيارات، بينما يحمل رجلين إسعاف محفَّة ترقد عليها جُثَّة المُحقِّق المُنتفِخَة، وملاءة بيضاء تمنع الموجودين من رؤيتها

قُلت لها بصوتٍ خافتٍ: " كان مُحقًّا"

انتبهت وهي تنظر لي بدهشة: " من؟"

قُلت لها وأنا أنظر نحو الفراغ غارقًا في التفكير: " أبي"

هزَّت رأسها بحيرة وهي تقول: " لا أفهَم"

ابتسمت وأنا أمسك بيدها بقوة مُبتسمًا بحنان قائلًا: " بالغد سأخبركِ بكُل شيء"

انتهى الطبيب من علاج قدمي، ما زال الألم يعدو في أرجاء جسدي صارخًا، تحاملت على نفسي مُستندًا على هَنَا وأنا أشكره، اقترب مني أحد رجال الشُرطة مُبتسمًا، صافحني وهو يقول: " اعترفوا بكُل شيء"

ابتسمت بألم وأنا أجيبه: " هذا جيد"

شكرني وقال مُستعدًا للرحيل: " سنحتاجك بالغد لتدلي بشهادتك في المحضر الرسمي، لا تُغلِق هاتفك"

ابتسمت وأنا أهز رأسي قبل أن أتحرك بصعوبة نحو سيارة هَنَا

(22)

هزَّت رأسها في حيرة وهي تتأملني: " والدك الميِّت؟"

فاتنة هي حتى في حيرتها، ابتسمت وأنا أقول لها: " ليس ميِّتًا، بل هو حبيس في بُعد آخر، ومن حُسن حظنا أن الصدع فتح بوابة بين العوالم الموازية سمحت له أن يمُر وصولًا للعالم الذي عبرت إليه الذكريات وعلقت فيه مُنتظرةً أن أصطادها بجهازي"

زادت حيرتها فزاد جمالها وهي تسألني في دهشة: " بُعد آخر؟ صدع؟ بوابة ذكريات! أنا لا أفهم أي شيء!"

بدأت أشرَح لها كُل شيء بالتفصيل، حاولت أن يكون الشرح مُبسَّط، ليست كُل العقول قادرة على استيعاب هذا القدر من المعلومات، لكنها كانت قادرة على أن تتبع خطاي وأنا أعدو في طُرق العلم شارحًا كُل شيء باختصار، سمعتني دون أن تُقاطعني وهي تهز رأسها في تفهَم

حين انتهيت قرَّرت أن أتسلَّح بالصمت، كُنت أعرف جيدًا أن لديها عشرات الأسئلة التي تتصارع في رأسها، صامتة كانت، تزُم شفتيها الجميلتين في محاولة لمنع الأسئلة من التطاير نحوي

بعد عدة دقائق كانت قد هدأت ورتَّبت أفكارها وحدَّدت أولوياتها وقرَّرت أن تنتهِج من المنطق أسلوبًا، قالت: " أنت تحدثت عن كُل شيء من الناحية العلمية، لكنك أغفلت شيئًا مُهِمًا"

انعقدَ حاجبي في دهشة، سألتها: " وما هو؟"

شعرت بالانتصار لأنها وجدت شيئًا كُنت قد أغفلته، ابتسمت وهي تقول بلهجة انتصار مُمتزِج بالفضول: " الجانب الروحاني للأمر"

الجانب الروحاني؟ فعلًا؟ العقل والمنطق يقولان إن الجانب العلمي هو الأدق وهو المسلك الذي يجب علينا أن نسلكه، لكن الجانب الروحاني وحكايات الجن والأشباح تلك لا مكان لها هنا

لكن بالطبع ليس كُل ما يجول خواطرنا يُقَال خصوصًا حين نكون في حضرة من نُحِب، لذلك كان يجب عليّ أن أجد طريقةً لتجميل الكلام، قُلت لها بعد أن رتبت أفكاري: " أثناء التجارب العلمية، لا يوجد مكان للروحانيات يا صغيرتي، لا مساحة لمُناقشة أي شيء سوى النظريات العلمية، والمُعطيات الواقعية"

ابتسمت وهي ترى غروري العلمي يطغى على كُل شيء، قالت برفقٍ ولينٍ: " أجل، لكنني الآن أتحدَّث مع الرجل الوحيد الذي مَلَك قلبي، لذلك أملُك كُل المساحة والمجال لمُناقشة أي شيء، وكُل شيء"

لطالما كانت مُقنِعة..

بدأت تشرح وجهة نظرها الخاصة: " من المُمكِن أن يكون هذا الصدع الذي فُتِح بطريقة ما، سَمَح لإحدى الأرواح العالقة بالمرور، من المُمكِن جدًا أن تكون هذه الروح هي روح المُحقِّق العالقة بسبب أنه لم يحصل على انتقامه ولم يُدفَن بشكلٍ لائقٍ، وهذه الروح قادتك لكشف لغز الجُثة، وبالتالي انتهى الجزء الأول من انتقامها، وسينال القتلة عقابهم على ما فعلوا واقترفوا، والآن سيبدأ الجُزء الثاني، الانتقام من هذا العالم"

رفعت حاجبي في دهشة وابتسامة سُخرية تتسلَّل إلى شفتي وأنا أقول: " يبدو أنكِ تُكثرين من مُشاهدة الأفلام الأجنبية الرخيصة"

لوحَت بيدها في إيماءة ذات مغزى لتأمرني بالهدوء، هزَّزت رأسي وأنا أستمِع إليها مرةً أخرى، استمرَّت في شرحها: " الآن، نحن مُتفقين تمامًا على وجود روح عالقة في عالم مليء بالذكريات، وأن جهازك يتلقَّف تلك الذكريات التي تعبُر الصدع ليترجمها إلى شكل مرئي في هيئة كوابيس، لكننا نختلِف في نقطة جوهرية، هامة وخطيرة، أنت مُقتنِع تمام الاقتناع بأن مُقتحِم كوابيسك المُلثَّم هو والدك العالق بين العوالم الموازية، وأنا شبه مُتيَّقِنة أن هذا المُلثَّم هو روح شريرة تحاول استغلالك كي تقتحِم عالمنا لتعيث به فسادًا"

فكرت بعُمق للحظة قبل أن أقول: " لقد لفتِّي نظري لشيء هام للغاية"

تساءلت بفضول: " ما هو؟"

" أن حبيبتي الصغيرة مُغرَمة بقراءة روايات الرعب والخيال العلمي لدرجة بدأت تؤثِّر على تفكيرها"

ضحكت من قلبها وهي تقول: " أنت تعلَم أنك ثقيل الظل.. أليس كذلِك؟"

ضحكت وأنا أهز رأسي، تعالى صوت ضحكاتنا ليملأ المكان بأكمله، لم نهتَم بالنظرات الغاضبة التي يرمقنا بها الجالسون حولنا في هذا المطعم الراقي

***

كانت الشمس على وشك المغيب، الهواء البارد يُهاجمنا، نجلس في مكاننا منذ عدة ساعات طويلة، نتحدَّث في كُل شيء، تجاهلنا الحديث عن الصدع والكوابيس لفترة طويلة للغاية، تحدثنا في كُل شيء، عن عملها، عن مُتابعيها، عن خططها للقادم من حياتها، بعد فترة من الصمت المُحرِج قرَّرت أن ألقي بقُنبلة من العيار الثقيل لتُبدِّد هذا الصمت، سألتها فجأة: " إذا طلبت منكِ الزواج، هل تقبلينني؟"

احمرَّ وجهها خجلًا وهي تنظُر أرضًا، وكأن العالم ازداد حُسنًا بخجلها، تفتَّحَت

الزهور وانقشَعَت الغيوم عن الشمس لتنير الدُنيا كما تُنير هَنَا دُنياي بابتسامتها، هزَّت رأسها بالموافقة دون أن ترفَع وجهها

مدَّدت يدي لأمس ذقنها الناعمة، أردت أن أرى عينيها، أن أطالِع حُسنها الأخَّاذ، كانت وجنتيها تزدانان بلون أحمر وعلى شفتيها ترتسِم ابتسامة سعادة لم أرها ترتدي مثلها من قبل

كرَّرت سؤالي: " هل تقبلينني؟"

هزَّت رأسها وابتسامتها تتسِع، حاولت أن أحافظ على ابتسامتي وأنا أمسك بيدها وأدعوها للنهوض وأنا أقول: " حسنًا، هيا بنا، أريدكِ أن تكوني معي حين آتي بأبي من العالم الآخر، أريدكِ أن تكوني في استقباله، أن يراكِ حين يعود لعالمنا ليُدرِك مدى بهاء هذا العالم بوجودكِ"

نهضت وابتسامتها تتسع بدرجة كافية لمحو كُل حُزن هذا العالم عن بكرة أبيه

(23)

صففت سيارتي أمام القصر الضخم، تأملَت القصر بإعجاب، ابتسمت وأنا أخبرها أن هذا المبنى الضخم الكئيب في انتظارها لتحوِّله ببهجة وجودها لعش عصافير رومانسي نعيش فيه

حاولت أن تهبط من السيارة لكنني أمسكت برسغها بحركة سريعة امتزجت بالقوة، فاجئها الأمر ليرتفِع حاجبيها بدهشة، شعرت بالخجل من فعلتي فتركتها وأنا أعتذر بصوتٍ خافتٍ

اعتدلت في مقعدها وهي تنظر نحوي، في عينيها يتقافز سؤال مليء بالفضول، تريد أن تسألني لماذا منعتها من الهبوط، لكن صوت دقات قلبي كان يصُم آذاني عن كُل ما حولي، كُنت أعلم أن تلك اللحظة قادمة لا محالة، لكنني كُنت أطمئن قلبي الوَجِل بأنها لا تزال بعيدة، لا يتحتَّم على التفكير فيها الآن، سأُفكِّر في عبور الجسر حين نصل للجسر كما قال الحكيم الصيني قديمًا، هل كان صيني أم تراه من سُكَّان مدينة نصر؟ أنا أبتعد عن هدفي الأساسي وأفكِّر في تفاهات، علىّ أن أركِّز قليلًا، فيم كُنت أفكِّر؟ اللعنة! ركِّز.. ركِّز.. ركِّز!!

أغلقت عينيّ في محاولة لاستجداء عطف التركيز، بعد لحظات كُنت قد عُدت للمسار الصحيح، حسنًا.. فتحت عيني لأرى عينيها الجميلتين تنظران لي في دهشة مُمتزجة بالحنان، كانت تنتظِر توضيحًا أملكه لكنني لا أجرؤ على الإفصاح عنه

استجمعت البقية الباقية من شجاعتي وأنا أبحث عن الحروف الصحيحة في محاولة لتكوين كلمات، تنهدت بعُمق وأنا أقول: " بما أنكِ وافقتِ على أن تُشاركيني القادم من حياتي، فيجِب عليّ أن أطلعك على شيء هام، سر.. سر أريد منكِ أن تعرفيه جيدًا قبل أن تتخذي قراركِ بالاستمرار من عدمه"

أمسكت بيدي بلينٍ وهي تقول: " سأستمِر مهما كان الأمر"

احتضنت يدها وأنا أقول: " لكن عليّ أن أخبركِ بالأمر أولًا"

هزَّت رأسها وهي تُراقِب يدي التي تنسحِب من بين أنامِلها ببطء قبل أن أقول بحرص: " في مجال البحث العلمي هناك دومًا ضحايا، يُطلِق العامة عليهم لفظ فئران التجارب، لأنهم يخضعون لهذه التجارب حتى يحصُل العلماء على نتائجها ومن ثَمَ محاولة تحسين هذه النتائج بما يتناسَب مع حاجة المُجتمعات"

هزَّت رأسها، كانت توافقني على ما أقول: " في الحقيقة.. واعلمِ جيدًا أنني لست فخورًا بما سأخبركِ به الآن، لكن أثناء محاولة إتمام اختراعي، مات إثنين من فئران التجارب في قبو هذا القصر الذي يقف شامخًا أمامكِ، لكنني سأخبركِ بشيءٍ لا تعرفيه، عوضت أسرهم بمبالغ مادية لم يكونوا يحلمون بها أبدًا، ولم يكُن هؤلاء الذين ماتوا ليحققوها حتى ولو عملوا كُل لحظة في حياتهم"

بدأت عينيها تغرورقان بالدموع وهي تنتظِر أن أكمِل حديثي، راقبت الدمعة التي سقطت على وجنتها قبل أن تمسحها بكف يدها وأنا أسترسِل في الحديث: " لكن هذا لم يكُن هو الأمر الهام، هناك ما هو أهم.. أريدكِ أن تعلمي أقذر أسراري، أريد أن أكون واضحًا معكِ في كُل شيء، أريدك أن ترى الحقيقة الكاملة لزوجكِ المُستقبلي، أن ترى الجانب المُظلِم لي، أن تري الجانب الذي تسبَّب في فتح باب اللعنات في حياتي"

هزَّت رأسها وهي تبحث عن يدي لتلتمس منها قوةً ودعمًا تتوق إليهما،

أكملت حديثي: " كُنت قد قُلت لكِ من قبل أن هناك صدعًا قد فُتِح بين العوالم الموازية وبعضها البعض سامحًا لذكريات الموتى ولحظاتهم الأخيرة بالعبور، لكنني لم أخبركِ عن سبب فتح هذا الصدع"

حركت شفتيها المُكتنزتين ببطء لتهمس بكلمة واحدة: " العُنف"

تراجعت للخلف في مقعدي وأنا أقول مشدوهًا: " كيف.. كيف عرفتي؟"

ابتسمَت بحُزن وهي تقول: " كما قُلت من قبل.. أنا أقرأ الكثير من الروايات وأشاهد العديد من الأفلام، أعتقد أنني قرأت هذا في رواية ما لا أتذكَّر اسمها في الوقت الحالي، لكن هذا لا يهم الآن.. أكمِل من فضلك.."

حاولت أن أنتقي الكلمات المُناسِبة لوصف الأمر: " لكل تجربة نتائج، تتأرجَح بين الصواب والخطأ، كي نستطيع أن نقول عن تجربة أنها ناجحة ونجزِم بهذا الأمر، يجب أن نصل لنتيجة نهائية لا تقبل الشك أو النقاش، ولكُل تجربة خسائر، ولأن تجربتنا هي تجربة هامة ستُفيد البشرية كثيرًا، وستُمثِّل دفعة قوية في السباق الذي تخوضه الإنسانية، وعلى قد أهمية الحدث، تأتي أهمية التضحيات، هؤلاء الذين ماتوا من أجل هذا الاختراع لم تذهَب تضحياتهم هباءً، لكن.. ليس كُل المُضَحِّين بحياتهم موتى"

اتسعت عيناها في خوف مُمتزِج بالدهشة وهي تسألني بصوتٍ مُرتعِدٍ: " ماذا تقصد؟"

تردَّدت قليلًا قبل أن أقول وأنا أنظر أرضًا في خَجل: " هناك.. هناك أحياء"

أنهيت كلمتي وأنا أشير بإصبعي نحو الأسفل، نظرت ببطء للمكان الذي أشير إليه قبل أن تنظر إليّ مرة أخرى بغير فهم، أعلم أن الأمر صعب

وقتها كُنت في حيرة من أمري، أمامي خيارين أحلاهما مُر، إما أن أشرح لها الأمر، أو أريها إياه بأم عينها

بعد قليل من التفكير قرَّرت أن أمهِّد لها الأمر قليلًا ثم أريها الأمر بعينها

بدأت شرحي: " كي يُفتَح هذا الصدع، لابد من مقدارٍ مُعيَّن من العُنف، هذا المقدار كافٍ لفتح الصدع مرة واحدة فحسب، وفي تلك المرة تعبر ذكرى واحدة فقط، وليس بالضرورة أن تكون ذكرى سيئة فيلتقطها الجهاز ككابوس، بل أحيانًا.. أو غالبًا بمعنى أصح تكون ذكرى عادية فيلتقطها الجهاز محولًا إياها كحلم عادي لا يُباع ولا يُستأجَر، لكن هذه الذكرى الوحيدة لا تكفي، لابد للصدع من أن يظل مفتوحًا كي يستمر تدفُّق الذكريات، لذلك كان لابد للعُنف أن يَظَل مُستمرًا وبنفس المقدار دون زيادة أو نقصان، كي أكون صريحًا معكِ.. حَدَث الأمر بالصُدفة البحتة، اكتشفت الأمر حين تحدَّثت مع أبي قليلًا داخل أحد الكوابيس أو الذكريات"

اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى وهي تهز رأسها بعدم تصديق

أردت أن أترك لها حُرية الاختيار، أردتها أن تشعُر أنها ليست مُجبَرة على أي شيء، بصوتٍ مُتهدِّج: " لكِ مُطلَق الحرية إن أردت الرحيل الآن، لكن كما أخبرتكِ.. أنا مُجبَر على زيارة أحد الكوابيس مرةً أخرى، أريد أن أحاول أن أعيد أبي إلى العالم الذي ينتمي إليه، أعتقد أنه يستحِق ذلك"

قالت من بين دموعها: " وأنت تستحِق أن أغفر لك بعض الأمور، لن أتركك، لكننا سنتحدَّث كثيراً حين تنتهي هذه الأزمة"

هززت رأسي وأنا أمسَح دموعها بطرف إصبعي برفقٍ ولينٍ

فتحنا أبواب السيارة في آنٍ واحدٍ ونحن نهبط من السيارة مُتجِهان نحو القصر بخطوات مليئة بالتردُّد والخوف

(24)

نظر المُتعهِّد أرضًا وهو يُفكِّر فيما قُلت للحظات قبل أن يقول: " لا أفهم.."

أجبته بعصبية: " فهمك لا يهمني، أريدك أن تفعل كما أقول فحسب.. أريدك أن تُعذِّب الأربعة في آنٍ واحد، بنفس القدر.. لا أريد أن يتعذَّب أحدهم أكثر من الباقين، وأن تظل تعذبهم وتحافظ على سيمفونيتك تلك جارية حتى أعود من الكابوس، هل تفهم هذا؟"

هز رأسه وهو يقول: " هذا الجزء أفهمه جيدًا، وصدقني.. أنا أكثر من قادر على فعله، أما الجُزء الآخر الخاص بالصدع والذكريات فلا أفهم منه شيئًا، أريد أن أخبرك بشيئًا هامًا، أنا مُقدِّر تمامًا شعورك وعصبيتك، لكن صدقني.. لو فكرت في التحدُّث معي بهذه الطريقة مرة أخرى، سيزيد عدد قتلاي واحدًا، هل فهمت الأمر؟"

عضضت على لساني بغضب في محاولة لكبح جماح غضبي قبل أن أسأله: "وهل سيغيِّر فهمك للأمر من عدمه أي شيء؟"

هزَّ رأسه بسُرعة دون أن يُفكِّر، تنفست بعُمق في محاولة لطرد غضبي وأنا أقول: " إذا من فضلك.. افعل ما أطلبه منك"

رفع حاجبيه في عدم اقتناع وهو يقول: " حسنًا.. لنفعل الأمر"

وقف ثلاثتنا وبدأنا نتحرَّك نحو القبو قبل أن يتوقَّف فجأة وهو يقول دون أن ينظر نحوي: " هل ستأتي معنا الآنسة؟"

كُنت على وشك أن أجيبه لولا أن سبقتني هي وهي تقول سريعًا: " أجل، سآتي معكُم"

نظر إليّ من فوق كتفه ببطء وهو يقول: " لن تتحمَّل ما سترى وستصرُخ.. وأنا لا أتحمَّل الصراخ"

كدت أن أجيبه لولا أن أتتني إجابتها من خلفي وهي تقول: " لن أصرخ.. سأتحمَّل كُل شيء أراه"

غمغمت بصوتٍ خافتٍ: " هل أترككما سويًا وأرحل أنا؟"

نظرت هَنَا نحو الأرض خجلى من تعليقي بينما تجاهله المُتعهِّد وهو يفتح باب القبو ويبدأ في النزول على سلمه الخشبي ببطءٍ وحرصٍ، أشرت لها أن تهبط قبلي لكنها هزَّت رأسها، بدأت في نزول السلم، شعرت بيدها الرقيقة تُمسِك بملابسي وكأنها طفل صغير يتشبث بجلباب أمه خوفًا من أن يضيع في زحام السوق، ابتسمت للحظة وأنا أهبط خلف المُتعهِّد، بحث بيده مُتحسسًا الحائط في الظلام بحثًا عن زر إضاءة يحاول الهروب، لكنه سُرعان ما وجده لينقشِع الظلام بعيدًا، سمعنا أصواتهم، هبطت السلم وصولًا للقبو وأنا أسمع هَنَا تشهق من خلفي بخوف، كانت تتأمل ضحايا العلم والقيود الحديدة تربطهم بالسقف والأرضية تحول بينهم وبين حريتهم، تتأمل آثار التعذيب بالنار على أولهم، وآثار الخنق بالماء على الثاني، أما الثالث فآثار الثلوج وقضمات الصقيع تبدو جلية على جيده، ورابعهم الذي لازمته رعدة أضحت لا تفارقه بفعل الكهرباء التي اتخذت من جسده مسكنًا

الدماء التي لوثت أجسادهم، الجروح التي كادت تتعفَّن، البول والبراز الذين يصارعون الدماء في تلويث أجسادهم، آنات الألم التي تخرج من بين شفاههم بضعف، لم تتحمَّل صغيرتي ما يحدُث، سقطت مغشي عليها في الحال، ولولا أنني شعرت بها وأمسكت لها لتحطَّم جسدها الرقيق على درجات سلم القبو

سمعت صوت المُتعهِّد يقول صارخًا: " على الأقل لم تصرُخ"

قهقه ضاحكًا على تعليقه ثقيل الظل، وكان سيستمِر في الضحك والقهقهة لولا أن زجرته بنظرة قاسية فابتلع ضحكاته صامتًا، حملت جسدها بين يدي مُتجهًا نحو مقعد وثير كان قد وضعه في ركن من أركان القبو ليتلذَّذ بمُراقبة ضحاياه المساكين وهُم يتجرعون الألم أشكالًا وألوانًا

سألني بشكٍ: " هل ستتركها هنا؟"

أجبته غاضبًا: " لا أملك رفاهية الوقت كي أعيدها إلى منزلها"

أشار للأعلى وهو يقول: " لماذا لا تصعد للغُرف الموجودة بالأعلى، أعتقد أن بعضها به أسرَّة لم تُمَس!"

هززت رأسي مُصدقًا على ما قال قبل أن أقول: " أجل، لكنني لا أضمن ردة فعلها بعد ما رأته، أريدها أمام أعيننا"

هز رأسه بعدم اقتناع، أعرف ما يدور داخل رأسه المريض، لماذا أتيت بشخصٍ لا تثق فيه إلى هنا منذ البداية؟ لكن الأمر طويل ويحتاج للكثير من الشرح، كما أنه يتضمَّن الكثير من الأمور الشخصية التي لا شأن له بها، لذلك لم أجيب على سؤاله

فتحت حقيبتي وأنا أخرج الخوذة منها، تأكدت من أن كُل شيء كما يُرام قبل أن أجلس على مقعد في مُنتصف الغُرفة وأنا أشير له أن يبدأ معزوفة الألم الخاصة به، وضعت الخوذة على رأسي، سمعت آهات الألم تعلو من حولي، صرخات التعذيب تتناثر في فضاء الغُرفة، أغلقت عيني وضغطت الزر عائدًا لعالم الكوابيس

***

وصلت إلى الفندق الذي يختبئ خجلًا خلف أشجار كثيفة، يتوارى عن أعين الفضوليين بحوائطه البيضاء وطوله الشاهق، كبير هذا المبنى بحق، أكبر من أن يكون فندق في قرية نائية، يزداد الأمر غرابة حين أهبط من سيارتي، لفتت عدة تفاصيل نظري، وأول هذه التفاصيل كان الهدوء، الهدوء التام الذي لا يجد ما يخدش حياء سكوته، لا حشرات، لا حيوانات، لا شيء على الإطلاق، حين تلاحظ هذا الصمت، سيكون من الصعب تمامًا أن تفكّر في أي شيء آخر، وصلت قبل رجال الشُرطة، هل وصلت مبكرًا؟ أم تراهم - كعادتهم - سيحضرون متأخرين؟

رأيته يطل برأسه من خلف جذع شجرةٍ في مُنتصَف الحديقة، توجَّهت إليه بخطى سريعة مليئة بالسعادة، ابتسمت وأنا أقول: " هل تأخَّرت عليك؟"

هز رأسه وهو ينفي عني شُبهة التأخُّر، جلسنا في مواجهة بعضنا البعض كالعادة، يُريد أن ينظر إلي وهو يخاطبني، وأريد أن أشبع من ملامحه التي تشتاق إليها روحي، سألني بفضول: " وجودك هنا يعني أنك تأكدت من الأمر بنفسك، هل هذا صحيح؟"

أومأت برأسي مُعقبًا: " هذا صحيح للغاية، ذهبت لتلك القرية الصغيرة في الحقيقة لأكتشف جُثة المُحقِّق، ولولا أن وقف الحظ إلى جواري في ذلك اليوم، لما عُدت إلى هنا أبدًا، لكنني تأكدت من الأمر، هذه الأشياء موجودة في عالمي، وهذا يعني شيء من إثنين، إما تأثُّر الأشخاص النيَّام بهذه الجريمة مما أدي لسُكناها في لا وعيهم، لكن هذه النظرية شبه مُستحيلة في هذه الحالة تحديدًا وهذا لأن هذه الجريمة كانت سرية ولم ينكشف الستار عن أسرارها ويكشفها للعامة، وبالتالي لا توجد أي طريقة ليعرف النائِم صاحِب الكابوس الأصلي بها، مما يدعنا في مواجهة النظرية الأخرى.."

قاطعني قائلًا: " وهي أنني مُحق فعلًا، وأننا الآن داخل آخر ذكرى من ذكريات

أحد الموتى، وأن تلك الذكرى عبرت الصدع وصولًا إلى عالمنا، واستطعت أن التقاطها وتسجيلها بفضل جهازك العبقري"

احمرَّ وجهي خجلًا، حين يصف العبقري عملك بهذا الوصف، يعني هذا أنك مُختلِف ومُتفرِّد بعبقريتك حقًّا، حتى لو تم نجاحك عن طريق الصُدفة

قال مُستكملًا حديثه: " والآن علينا أن نتفق على الطريقة التي سنعود بها"

رفعت رأسي مُتأملًا ملامحه التي كستها الجدية والصرامة وهو يقول: " الآن هناك جسد ينتظر وعي لتعود إليه، وفي العادة أنت تعود إليه بعد أنت تنتهي، وجدت طريقة تسمَح لي أن أعود أنا بدلًا منك، على أن تنتظرني هنا أنت لحين الانتهاء من اختراع جهاز آخر يسمح لي بالتقاط وعيك من هنا ومن ثم أن أسكنه الوعاء المُناسِب و.."

قاطعته وعلامات عدم الفهم على ملامحي: " لحظة، لحظة.. أنت ستعود وأنا سأظل عالقًا هنا؟"

نظر إليّ في دهشة وكأنني أجادله في إحدى الأمور البديهية، قال: " أجل، ما هي مُشكلتك؟"

هززت رأسي في عدم تصديق وأنا أسأله ببلاهة: " مُشكلتي أنك تطلب مني أن أنتظرك هنا كي تعود أنت إلى عالمي وتحتَل جسدي بدلًا مني، ومن ثُمَ سيتحتَّم عليّ الانتظار حتى يتفتق ذهنك عن فكرة لجهاز - يعلم الله وحده إن كان سينجح أم لا - لتُعيدني إلى العالم بدوري، لكن انتظر.. ليس هذا هو الأمر برمته، حين أعود إلى العالم لن أسترد جسدي، بل ستجد لي وعاء مُناسِب لأسكنه، ترى ما هي مُقترحاتك لهذا الوعاء؟"

لم يرى السُخرية التي تملأ سؤالي، وبدأ يجيبه بجدية بالغة: " أفكِّر في أمرين، إما ذاكرة حاسوب ضخمة تسكنها وتتعامَل معنا عن طريق برنامج ما يترجم

أفكارك واحتياجاتك إلى سطور ببرمجة مُعيَّنة، أو إنسان آلي مُتقَن الصُنع تسكنه، وصدقني يا ولدي.. أعلم جيدًا قدرتي على اختراع الأمرين"

" ولماذا لا تخبرني بالطريقة التي سأخترع بها الوعاء أنا ومن ثم سأعود لاصطحابك حين أنتهي من اختراعه؟"

تطلَّع إليّ في دهشة وكأنه لا يُصدِّق ما يسمعه قبل أن يقول: " من أجل الإنسانية؟"

ولأنني لم أفهم ما يرمي إليه سألته مُندهشًا: " الإنسانية؟"

هزَّ رأسه وهو يقول: " مستوى ذكائي يفوق مستوى ذكائك بكثير، لذا من الأفضل للبشرية والإنسانية أن أعود أنا، الفترة التي قضيتها عالقًا هنا سمحت لي بالتفكير في الكثير من الاختراعات والأشياء التي من شأنها أن تُفيد العالم بأسره"

سألته بعدم تصديق: " أما أنا فعليّ أن أعيش بقية حياتي كبرنامج أو حبيس كيان مصنوع من الصفيح لأنك أذكى مني؟"

كرَّر كلمته: " من أجل الإنسانية"

وبدون تردُّد أجبته: " تبًا للإنسانية"

ابتسَم ابتسامة غامضة وهو يقول: " إذن أنت غير موافق على مُقترَحي؟"

هزَّزت رأسي بعُنف وكأنني أنفض الفكرة عن رأسي للأبد، اتسعَت ابتسامته، لاحظت عيناه تلمعان بطريقة غريبة وهو يقول: " كُنت أتوقَّع هذا، سيكون عليك دائمًا أن تستعِد للفشل، عليك أن تُجهِّز دائمًا خططًا بديلة"

مد يده داخل ملابسه ليتناوَل شيئًا ما، سألته وأنا أقف وأتراجَع خطوة للخلف في خوفٍ: " وما هي خطتك البديلة؟"

أخرج من بين طيَّات ملابسه سكين نُحِت من حجرٍ صلب وهو يصوِّب نصله

نحوي، تراجعت خطوة للوراء، قال بسُخرية مليئة بالقسوة: " أتعرِف أنك إن مُت هنا ستموت في الحقيقة، وحينها ستنتهي حياتك أما أنا فسأنتظِر هنا صدفة أخرى تعيدني إلى عالمي"

تراجعت للخلف خطوة أخرى وأنا أشعُر بقشعريرةٍ باردة تسري في جسدي لتحتَل عمودي الفقري وهو يستكمِل تهديده: " أما لو قبلت فكرتي، فسأسمح لك أن تحيا مرة أخرى"

قُلت بسُخرية: " أحيا داخل برنامج أو عبوة صفيحية، أي حياة تلك؟"

" هي حياة أفضل من الموت"

رفضت إجابته قائلًا: " بل الموت أهوَن وأفضَل"

قال ساخرًا: " إذن فهو اختيارك"

هاجمني بالسكين، انحنيّت سريعًا لأتفادى نصل السكين، دهشت من ردة فعلي، لم أكُن أعلَم أن جسدي بإمكانه فعل هذا، لكنني أدركت الأمر سريعًا، أنا حبيس جسد المُحقِّق، وبالتأكيد أمثاله يتمتعون بلياقة عالية ورد فعل سريع لا بأس به، هاجمني بالنصل مرة أخرى، ابتعدت عنه فاصطدم النصل بالحائط من خلفي، قرَّرت أن أستغل الفرصة، ركلته بقدمي لأبعده عني، لا أحب شعور الحصار، وهو على وشك أن يُحاصرني، حاولت أن أبتعِد من مكاني، اندفعت للأمام بعيدًا وهو يُمسِك ببطنه مُتألمًا، عدوت خطوتين للأمام، لكنني فوجئت بعودتي لمكاني مرة أخرى، هزَّزت رأسي في عدم تصديق، ما الذي يحدُث؟ حاولت أن أهرب مرة أخرى، عدوت في اتجاهٍ آخر، لكنني سُرعان ما وجدت نفسي أعود لمكاني مرة أخرى، أمام عيني بدأت إحدى الأشجار في الارتعاد، لا أعلم كيف أشرح الأمر، ولكنها كانت تختفي وتعود للظهور مرةً أخرى، كما يحدث في بعض الأحيان في الألعاب الإليكترونية، هناك أمرًا ما يحدُث، لكنني لا أعلم يقينًا ما هو

حاولت الهروب مرة أخرى، هذه المرة نجح الأمر، عليّ أن أتغلّب عليه سريعًا كي أفر من هنا عائدًا إلى عالمي مرة أخرى، حاول أن يهاجمني بالنصل مرة أخرى، هذه المرة حال التغيير الذي يحدُث دون أن أتفادى النصل سريعًا، استطاع أن يغرس النصل في كتفي، شعرت بالألم في كتفي، صرخت بألم، انتزع سكينه من كتفي، من سوء حظي أن حدث الأمر مرةً أخرى، كلما انتزع السكين عاد من البداية مرة أخرى وهو مغروس في كتفي، استمر الأمر للحظات مرّت كالسنين والألم يسكن تفاصيلها

أمسكت بكتفي بألم وأنا أرى يدي تتلوّث بدماءٍ حمراء قانية، الأشجار تختفي من أمامي دون عودة، يبدو أن هذا العالم ينهار، عليّ أن أغادر هذا المكان سريعًا، ضربته برأسي في أنفه بقوة، صرخ وهو يسقط أرضًا والدم يتدفق من فتحتي أنفه، أعلم جيدًا أن هذه الربة كفيلة بخلق ألم لا يُحتمَل، على أن أستيقظ الآن، اتخذت قراري، عليّ أن أرحل من هنا، هناك غيمة من الظلام الأسود تزحف نحونا ببطء، يبدو أن هذا العالم إنهار تمامًا، على أن أستيقظ الآن، شعرت بوعيي ينسحِب وهذا شيء جيد، أنا في طريقي للعودة إلى عالمي، شعرت بيده وهو يُمسِك بقدمي بقوة، حاولت أن أتخلّص منه لكن الآوان كان قد فات

عُدت إلى عالمي وأنا أشهق بقوة، رعدة قوية تسري في جسدي وأنا أتنفّس بعُمق، خلعت الخوذة عن رأسي في حركةٍ سريعةٍ وأنا ألقيها أرضًا لتتحطّم أمام عينيّ، ركلت الهواء بقدمي في محاولة للتخلُّص منه قبل أن أدرِك أنني عُدت إلى عالمي وأنه لم يأتي معي ولم يعُد يطاردني

سمعت صوتها تتأوه في ألم، توقّف قلبي للحظة وأنا أحاول أن أتبين سبب تألمها، شهقت وأنا أتراجع للخلف في عدم تصديق

أمام عينيّ.. كانت هنَا مُقيدة بالأغلال والسلاسل والمُتعهِّد يُعذبها بقسوة وعُنف، دمائها تسيل على جسدها الرقيق وملابسها التي تمزقت من أماكن عديدة

كانت تنظر نحوي والألم يتقافز من نظراتها المكسورة قبل أن تبتسِم بحُزن ورأسها يسقط على صدرها دون أن تتحرَّك في إشارة لا تحمِل سوى معنى واحد

انتهي الأمر..

للأبد!

(25)

استيقظت بعد ثلاثة أيام، كُنت قد بدأت أفقد الأمل في استعادتها مرة أخرى، خلال تلك الأيام الثلاثة كُنت أعمل كمُمرضة تحت أمرها، أتيت بطبيب اعتنى بها جيدًا ومن ثم أشرفت أنا على الاعتناء بها وبمُتابعة علاجها ونظافتها الشخصية خلال تلك الفترة

انتهى الأمر تمامًا..

استقال المُتعهِّد تاركًا عمله بعد أن كدت أقتله لولا أنه استطاع أن يشرح لي الأمر في اللحظات الأخيرة لتنطفئ ثورة بركان غضبي

مات أحد المُعذَبين، لم يحتمِل العذاب أكثر من هذا، وأسلَم روحه إلى بارئها عزَّ وجَل، وحينها بدأت المنظومة في الانهيار، بدأ جسدي في الارتعاد بشكل غريب وبدأت مُعدلاتي الحيوية في الانخفاض، كاد الأمر ينتهي ويتهدَّم عالمي فوق رأسي لولا أن أفاقت في الوقت المُناسِب، شعر بي قلبها على الرغم من فُقدانها لوعيها، دار نقاش سريع بينها وبين المُتعهِّد عمّ يحدُث، فهمت منه الأمر، إنهار أحد أضلاع التعذيب بوفاة هذا الشخص، وحينها اختَلَّ نظام الصدع بأكمله، كاد ينغلِق لولا أن تدخلت هي وطلبت منه أن يبدأ في تعذيبها بنفس الطريقة وبنفس القدر، كاد يرفُض لولا أن بدأ جسدي في الارتعاد بعُنفٍ بالغٍ، كان من الواضح أنهم يفقدونني، واضطر حينها أن يطيعها، حرَّر جسد الشخص الذي توفى وربطها بدلًا منه، بدأ في تعذيبها بنفس القدر، كادت تفقد وعيها أكثر من مرة، بدأت مُعدلاتي في الاستقرار وهدأت رعدة جسدي بشكلٍ ملحوظٍ لكنني لم أعد للعالم بعد

كانوا يخشون أن تفقد الوعي أو - لا قدر الله - تتوفى قبل أن أعود فينهار كُل شيء وأظل أنا حبيس هذا العالم الافتراضي

وحين اطمأنت علىّ وعلى عودتي، انهار جسدها الرقيق الذي لم يتحمَّل كُل هذا القدر من التعذيب

وكان علىّ أن أرد جميلها، استطعت فتح هاتفها وأخبرت مُتابعيها أنها ستُسافِر في رحلة قصيرة فلا داعي للقلق عليها، طمأنت أهلها برسائل أنها في رحلة عمل وأصيبت بمرض أضاع صوتها فاضطر طبيبها لمنعها من الحديث لفترة صغيرة، وستراسلهم في تلك الفترة أولًا بأول

بالطبع لم أستطِع أن أذهب بها إلى المُستشفى كيلا يسألني الأطباء عن علامات التعذيب الذي تظهر جلية على جسدها الرقيق، فأتيت لها بطبيبٍ خاص إلى هنا وتوليت أنا البقية بعد رحيله إلى أن أفاقت

تأوهت وهي تلمس الشاش الطبي الذي يُغطي جروحها، انتبهت لها فأسرعت إليها، ابتسمت بألم وهي تحاول النهوض عن الفراش، أشرت لها ألا تتحرَّك، استجابت لي بعد أن ذاقت الألم الناتِج عن حركتها المُفاجئة، سألتني بصوتٍ خفيض: " ما الذي حَدَث؟"

بدأت أخبرها الأمر باختصار كيلا أجهدها، رحل المُتعهِّد بعد أن أخذ الجُثة والثلاثة الباقين معه، لا أعرف مصيرهم وبكُل أمانة وصدق لم أهتَم بالأمر، بعت براءة الاختراع للبيه بمبلغ لا بأس به، انتهى الأمر تمامًا

ابتسمت وهي تقول: " لا.. لم ينتهي بعد"

انعقد حاجبي وأنا أسألها: " لماذا؟"

قالت بسعادة: " لم نتزوَّج بعد"

قهقهت ضاحكًا من قلبي، كُنت أشعر بسعادةٍ بالغةٍ، بادلتني الضحك في سعادة وأنا أقول من بين ضحكاتي: " سنتزوَّج.. سنتزوَّج يا مُنقذتي"

(خاتمة)

استيقظت على صوت المنبه، اندفعت نحوه سريعًا قبل أن يوقظها، اليوم يوم مُميَّز، ذكرى زواجنا الأولى، سنة.. سنة عرفت فيها أن الجنة هي عينيها، وأنني المؤمن الوحيد بهواها لذا كافئني الله بها، التفت خلفي بحذر لأتأكَّد من أن المنبه لم يوقظها، لكنها لم تكُن موجودة

ابتسمت، ربما فكرت مثلي، كُنت قد قرَّرت الاستيقاظ مُبكرًا كي أجهِّز لها إفطارًا مفاجئًا كاحتفال بسيط بهذا اليوم، لكن يبدو أنها فكرت في نفس الأمر، مددت يدي وتحسست الفراش لكنه كان باردًا، هذا يعني شيئًا واحدًا.. استيقظت منذ وقتٍ طويلٍ، أم.. أم تُراها لم تنم بعد؟

خرجت من الغُرفة بخطوات بطيئة كي لا تشعُر بوجودي، يقودوني فضولي للتحرُّك بصمت في أرجاء المنزل باحثًا عنها، لم تكُن في غرف الدور الثاني كُلها بما فيها غُرفة الضيوف وغرفتي الأطفال، الحمَّامات فارغة كذلك

أين ذهبت؟

هبطت على السلم نحو الدور الأول، غرفة الطعام.. خالية، المطبخ.. خالي، لم أنسَ تفقُّد السكاكين في المطبخ قبل أن أستكمِل رحلة بحثي، من حُسن حظي أن عددها كان كاملًا، انطلقت نحو غرفة المكتبة لكن الكُتب كانت تنام بكسل على رفوفها، أغلقت بابها، لم يعُد هناك سوى مكان واحد، المكان الوحيد الذي لم أتوقَع أن أجدها فيه يومًا

كان باب مكتبه مفتوحًا، لم يدخُل أي شخص لغرفة المكتب منذ وفاته، حافظت عليها مُغلقة منذ وطأت أقدامي هذا المنزل، وها هي مفتوحة أمام عيني، تسلَّلت بحرص نحو الباب المفتوح

سمعت صوت أوراق تتقلب فوق بعضها البعض، وقفت على الباب وأنا أختلس النظر إليها، وما رأيته أمام عينيّ كان كافيًا لخلق قشعريرة باردة سرت في جسدي سريعًا

كانت تجلس على الأرض أمام الخزانة المفتوحة وتعبث في أوراق موجودة بداخلها باهتمام، كانت تبحث عن شيء بعينه، ومن الطريقة التي تُقلِّب بها الأوراق فهي تعرف يقينًا عمّا تبحث، تراجعت للخلف مشدوهًا، لا أصدق ما أرى

اصطدمت بالباب دون أن أدري، كدت أتعثَّر لكنني تمالكت نفسي في اللحظات الأخيرة، ويبدو أن صوت اصطدامي بالباب الموارب كان كافيًا للفت نظرها

نظرت خلفها وعلى وجهها ابتسامة سُخرية مُخيفة، رفعت مُسدَّس لم أكُن أدري بوجوده وهي تقول بسُخرية: " مرحبًا يا عزيزي"

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أسأله: " كيف أتيت إلى هنا؟"

اتسعت ابتسامته وهو يتجاهَل سؤالي قائلًا: " سعدت برؤية الخزنة، توقعت أن تحاول سبر أغوارها فتفجرها، لكنك كُنت مُحترمًا كما عهدتك"

تنفست بصعوبة وأنا أطالع فوهة المُسدَّس المصوَّبة نحوي وصوت ضحكاته المجنونة يتردَّد في كُل مكان داخل القصر.. قصره!

(خاتمة 2)

أخرجه صوت طرقات الباب من تركيزه، رفع عينه من على الأوراق التي كان يقرأها، أمر الطارق بالدخول، دخلت سكرتيرته الحسناء التي ترتدي حلة كلاسيكية نسائية وهي مُرتبِكة بعض الشيء لتُخبره بشيء هام: " هناك شخص حضر إلى هنا دون موعِد مُسبَق، لكنه مُصِر على مُقابلتَك، يقول أن اسمه يوسف بيه"

اعتدل على مقعده وظهرت عليه علامات الاهتمام وهو يأمرها أن تسمَح له بالدخول

دخل يوسف بيه مُبتسمًا إلى مكتبه، استقبله صاحِب المكتب بابتسامة واسعة وهو يخرج من خلف مكتبه، أشار له بالجلوس وجلس على المقعد المُقابل له، وبدون أي كلمة زائدة مدّ يده إلى الملف الذي يحمله يوسف بيه، أعطاه يوسف بيه الملف وابتسامته تتسِع، تفحَّص الأوراق التي تملأ الملف برفق قبل أن يسأله: " انتهى الأمر"

أومأ يوسف بيه برأسه وهو يقول بثقة: " المشروع بأكمله ملكًا لنا الآن، وستجد بالداخِل أيضًا اقرارًا يتعهَّد فيه بالصمت التام وبألا ينبس ببنت شفة عن أي شيء يخص المشروع"

فحص صاحِب المكتب الإقرار المقصود قبل أن يعيده مكانه ويُغلِق الملف ويضعه على منضدة القهوة الصغيرة التي تتوسطهما، مد يده وصولًا إلى جيب

بدلته الداخلي وهو يخرج دفتر شيكات وقلم منقوش عليه الحروف الأولى من اسمه (س . م)

كتب رقم على الشيك يحتوي على سبعة أصفار قبل أن يوقع الشيك وهو يُعطيه إلى يوسف بيه الذي تأمله قبل أن يضعه في جيب بدلته الخارجي وهو يقف ليصافح صاحب المكتب

خرج من المكتب دون أن ينتظر، وقف صاحِب المكتب وهو يُمسِك بيده الملف الخاص بمشروع (تأجير الأحلام) وهو يقول بصوتٍ مليءٍ بالجشع: " والآن.. ليبدأ زمن سعيد المحروقي"

النهاية

(تمت بحمد الله)

إهداء واجِب

شكر خاص للصديق والأخ/ باسِم الخشن

لولاك ولولا ملحوظاتك العبقرية على بعض أحداث هذا العمل المتواضِع لما خرج هذا العمل بشكله الحالي

شكرًا لك على تحمُّلي وتقبُّل سخافتي في كثير من الأحيان

شكر خاص للصديق الجدع اللي دايمًا موجود

محمد علي علي

ربنا يديمك يا محمد، أنا مشوفتش أجدع منك

شكر خاص للصديق المُبدِع ورفيق جلسات العصف الذهني

عبد الرحمن جاويش

مش عارف محبكش، ومعرفش ليه!

إهداء لأول مرة لـ **يوسف أحمد مجدي**

نورت الدنيا يا حبيب خالو، اضحك شوية.. ماشي؟

الصديق اللي مشفتش منه حاجة وحشة أبدًا

محمد حجازي

الكاتب والمصمم العبقري

محمود علام

شكر واجِب وعرفان بالجميل

إلى مكاسب السنة

الجميلة/ نسرين أسامة

الجميلة/ شيمو كسّاب

الجميلة/ سلسبيل

الجدع جدًا/ أيمن منصور

الجدع جدًا/ سيف حبشي

المصورة العبقرية/ ياسمين عبد الغني

الدكتورة اللي رافعة راسنا/ ريهام الجريتلي

والحلوين

سعاد مصطفى

أسماء فاروق

هبة حسين

محمد متولي

محمد راضي

أمير عاطف

ضحى صلاح

هدير نادي

سارة يونس

منة خميس

آية سعد الدين

ماما/ إيناس الخبيري

ماما/ فاتن العبودي

زينب مُرسي

هبة مؤمن

إيمان مؤمن

محمد جمال فرانك

النّيدلانُ

THE NIGHTMARES MAKER

لسنا هنا لنُتاجِر بأحلامك، لكن لدينا أسوأ كوابيسك.

أخبرني يا صديقي، هل سمِعت عن الوحش الذي يلعَب الغُميضة مع أطفال تلك القرية؟

هل علِمت بشأن جريمة القتل الغامضة التي حدثت في أحد الفنادق النائية؟

أم تراك عرفت بأمر غُرفة الفئران والشيء الذي يسكُنها؟

ربما أخبروك عن الملعون الذي ولد في تلك الجزيرة البعيدة بجوار فنار الشر الأعظم؟

بجُنيهات قليلة سيُمكنَك أن تعرف بكُل هذا، وإذا شعرت أن تلك الكوابيس تتعدى كونها أضغاث أحلام، فقد اِقتربت من الحقيقة



